

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

التكوين الجغرافي والبشرى^(١)

تقع شبه جزيرة إيبيريا في الجنوب الغربي من القارة الأوربية، وتتصل بالقارة عن طريق جبال شاهقة وعرة، هي جبال البرينيه التي تكوّن حاجزا منيعا بينها وبين أوروبا، ولا يمكن لأحد اجتيازها إلا من ممرين يخترقانها في الشرق والغرب، وبينهما ممرات متعرجة ملتوية ضيقة سماها العرب باسم الأبواب مما جعلهم يسمون تلك الجبال جبال الأبواب. وفي وسط الجزيرة هضبة كبرى تنحدر نحو الشرق مطلة على البحر المتوسط مهد الحضارات القديمة الكبرى: المصرية والفينيقية واليونانية والرومانية، كما تنحدر نحو الغرب مطلة على المحيط الأطلسي، وهو يطوّق شاليها الغربي في خليج بسكاي ويتصل في جنوبيها بالبحر المتوسط عن طريق مضيق الزقاق الذي سُمي بعد الفتح العربي إلى اليوم باسم مضيق جبل طارق. وتمتد في هضبة إيبيريا الوسطى سلاسل جبال من الشرق إلى الغرب تصعب التواصل بين أجزائها في الداخل. وبها أنهار كثيرة وخاصة في الغرب حيث تصب في المحيط، وهي من الشمال إلى الجنوب نهر المنبو ثم نهر دُويرة، وهو كثير الفروع غزير المياه خصب التربة، ويليه نهر تاجه وتقع عليه مدريد وطليلطة ويصب عند أشبونة، ثم نهر آنه وتقع عليه بطليوس، فنهر الوادي الكبير وتقع عليه قرطبة وإشبيلية ومنه يتفرّع نهر شنيل مادًا ذراعا له إلى غرناطة، وجنوبيه نهر لكة ويصب في المحيط بالقرب من قادس. وتصب في البحر المتوسط أنهار أقل أهمية ما عدا نهر إبرو في

الأولى من كتاب فجر الأندلس للدكتور مؤنس
وكتاب دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله
عنان وكتاب الإسلام في إسبانيا للدكتور لطفى
عبد البديع.

(١) انظر في التكوين الجغرافي لإيبيريا كتب
الجغرافية العربية القديمة وخاصة التراث الجغرافي
الأندلسي والتعريف به في كتاب الجغرافية
والجغرافيين في الأندلس للدكتور حسين مؤنس.
وراجع في التكوين البشرى لإيبيريا الصفحات

الشمال وهو متعدد الفروع غزير المياه، وينبع من شرقي إقليم قشتالة ويمر بإقليم أراجون بإقليم سرقسطة في الثغر الأعلى بإقليم قطالونية ويصب عند طرفوشة جنوبي برشلونة. ويليه جنوباً نهر الوادي الأبيض ويصب عند بلنسية، فنهر شُقر بأوديته وفروعه الخصبية ويصب شمالي دانية، ثم نهر شقورة وعليه تقع مرسية، ويليه نهر أندرش ويصب عند المرية، فنهر البُشرات ويصب عند شلوبينيه.

والمناخ في إيبيريا متباين لاختلاف أقاليمها، فهو في الجبال وشمالي البلاد بارد، وهو دافئ في الوديان بالوسط وفي الجنوب. ومناخ الأقاليم في الشرق مناخ البحر المتوسط وتخضع له تلك الأقاليم في نباتاتها وحيواناتها، بينما تخضع الأقاليم في الغرب لمناخ المحيط الأطلسي ونباتاته وحيواناته وغاباته. وإيبيريا لاتساع مساحتها وقيام الجبال والهضاب فيها متعددة المناخ، فمناطق جبلية بها غابات وأحيانا معادن وبسفوحها مراعي، ووديان وسهول بها زروع وبساتين، وهضاب بها قفار ومراعي، وأحواض أنهار بها حبوب ويقول وحدائق ذات بهجة. ومن يعيشون في تلك الأحواض وما بها من زرع وضرع تجرى حياتهم سهلة هيئة، ومن يعيشون في الجبال يتأثرون بوعورتها ومن يعيشون في سفوحها والقفار ومراعيها يتأثرون بما يتأثر به أهل البوادي. وعلى هذه الشاكلة بيننا نجد في إيبيريا أهل مدن متحضرين نجد أهل جبال بائسين كما نجد رعاة متبدين، مما حال من قديم بين أهل إيبيريا وبين قيام وحدة جغرافية تؤلف بينهم وتجمع أشتاتهم.

وهذا الاختلاف في أقاليم إيبيريا رافقه - منذ أقدم الأزمنة - اختلاف في العناصر والأجناس البشرية التي كوَّنت سكانها، وأول من سكنها الإيبيريون وهم قبائل من غالة والبسك، وسرعان ما أخذت أجناس وأمم تزد عليها، وكان أول الوافدين الفينيقين، وفدوا عليها في القرن العاشر قبل الميلاد للتجارة، وأقاموا بشواطئها الجنوبية مؤسسين على البحر المتوسط مدينة مالقة وعلى المحيط مدينة قادس، ووفد عليها بعدهم الإغريق في القرن الخامس قبل الميلاد وأقاموا بشواطئها الشرقية الشمالية وهم الذين سموها إيبيريا وقد أسسوا بها مدينة برشلونة على البحر المتوسط، ووفد عليها بعدهم بنحو قرنين القرطاجنيون وأسسوا في شرقيها مدينة قرطاجنة. واستولت عليها روما في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد، وكان جيشهم الفاتح لها خليطا من شعوب أوربية مختلفة إيطالية وغير إيطالية واستوطنتها بعض أسر رومانية، وأطلقت عليها روما اسم إسبانيا، وأشاعت فيها حضارتها ولغتها حتى إذا تنصرت أدخلتها معها في النصرانية. وظلت خاضعة لها، حتى

إذا أقبل القرن الخامس الميلادي وأقبلت معه غارات المتبربرين من الألمان وغيرهم على الدولة الرومانية الغربية وقضت عليها كان من سابقهم إلى إسبانيا قبائل، الوندال، وزحزحتهم إلى الجنوب قبائل ضخمة من القوط وسمى باسمهم: «فاندالوسيا» وعرب الفاتحون من العرب هذا الاسم إلى الأندلس وسموا به جميع إيبيريا من الجنوب إلى أقصى الشمال. وظل القوط يحكمون البلاد متخذين طليطلة - كما اتخذها الرومان - عاصمة لهم، ونزلها في عهد القوط يهود كثيرون، وازداد عددهم بها حتى كانت لهم مدن خاصة بهم مثل أليسانة قرب قرطبة وكثروا في إلبيرة وغرناطة.

وأضاف الفتح العربي إلى هذه العناصر البشرية الكثيرة في المجتمع الإيبيري عناصر جديدة آسيوية من العرب وإفريقية من البربر. وكان عدد العرب في الفتح لا يتجاوز ثمانية عشر ألفا، وسموا باسم البلديين تمييزا لهم من فوج عربي نزل الأندلس سنة ١٢٣ للهجرة مع واليها بلج بن بشر القشيري، وكان تعداده عشرة آلاف وسموا باسم الشاميين تمييزا لهم من البلديين، ونزلها في سنة ١٢٥ للهجرة مع واليها أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي فوج عربي ثان، وسمع العرب بخيراتها فارتحل إليها كثيرون منهم. وكانت كثرة الفاتحين من البربر حتى إذا تم الفتح أخذت بعض القبائل والعشائر البربرية تهاجر إلى الأرض الجديدة واتخذوها سكنا ومقاما لهم. وبجانب البربر والعرب نجد عنصرا ثالثا فسح له حكام الدولة الأموية في الأندلس والمقام بها منذ أفضى زمام تلك الدولة إلى الحكم الربضي (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) إذ استكثر من شراء الصقالبة، وهم رقيق أوربي كان يُخصى ويبيع، وأصل نشأته في بلغاريا شرقي أوربا، ولذلك قيل له صقلبي، وعم الاسم في الأندلس الرقيق الأوربي جميعه من ألمانيا وغير ألمانيا. وكان حكام الدولة الأموية يشترون هؤلاء الصقالبة شيانا ويدخلونهم في الإسلام ويعلمونهم العربية وآداب المجتمع الأندلسي ويدربونهم على الفروسية واتخذوهم حرسا وخدمًا في قصورهم، وألحقوا نفرا منهم بجيوشهم وازدادوا حتى بلغوا أكثر من ثلاثة عشر ألفا في عهد عبد الرحمن الناصر، وسنراهم يستقلون ببلنسية ودانية والمرية في عهد ملوك الطوائف.

وواضح أنه شاركت في التكوين البشري لإيبيريا أجناس كثيرة منها الآسيوي والإفريقي والأوربي، وبذلك أصبحت في دماؤها القارات القديمة الثلاث، مما حال دون قيام وحدة سياسية فيها، إذ أخذ كل إقليم من أقاليمها يشعر أن له وجودا ذاتيا وأن من حقه التمتع بالاستقلال، ومن ينظر إلى خريطتها اليوم يرى فيها أمتين مستقلتين تمام الاستقلال: الأمة الإسبانية والأمة البرتغالية، ولكل منها نظامها السياسي الخاص.

الفتح - عصر الولاية

(أ) الفتح^(١)

أتم موسى بن نصير والى المغرب منذ سنة ٨٦ هـ/٧٠٦ م فتح بلاد المغرب حتى المحيط الأطلسى غربا وجبال السوس الأقصى جنوبا، واتبع موسى سياسة حميدة: أن يرسل مع الجيوش الغازية طائفة من الفقهاء ليدخلوا البربر في الدين الحنيف ويلقنوهم تعاليمه، مما عمل على تعريبهم سريعا، وأسس في بلاد المغرب الأوسط ولاية جعل حاضرتها تلمسان، وأسس في بلاد المغرب الأقصى ولاية ثانية جعل حاضرتها طنجة المطلة على مضيق الزقاق، وولى عليها أحد قواده من البربر هو طارق بن زياد. وأبقى موسى على سبته شرقها على الزقاق لواليتها الرومى البيزنطى يوليان، وكان قد سارع إلى موسى حين وصوله إلى إقليم طنجة سنة ٨٩ هـ/٧٠٩ م فأعلن له ولاءه وطاعته. ويظن أنه أغراه حينئذ بغزو إيبريا، وكان ملكها غيطشة Witiza قد توفى سنة ٧٠٨ م وأبى الأشراف أن يخلفه على العرش أحد أبنائه، وأجلسوا عليه لذريق Roderic حاكم قرطبة، ونشبت حروب بينه وبين أبناء غيطشة، وانتصر عليهم، ويبدو أنهم استغاثوا بيوليان حاكم سبته البيزنطى حليف أبيهم، ورأى أنه لا قبل له بلذريق وفكر أن يستعين عليه بالعرب، فأغرى موسى بن نصير - حين لقيه في طنجة - بغزوها. أما ما يقال من أن دافع يوليان إلى حث موسى على هذا الغزو مسألة شخصية هي عدوان الملك الجديد لذريق على ابنته في قصره وأنه أراد أن يثأر لانتهاك عرضه بحض العرب على غزو إيبريا ففى رأينا أن ذلك من باب الأساطير، والمعقول أن يكون الباعث الحقيقى لموسى بن نصير على غزوها

وما بعدها ونزهة المشتاق للإدرسى بتحقيق دى جويه ودوزى (طبع ليدن) ص ١٧٧ وتاريخ إسبانيا الإسلامية لبروثسال ٨/١ وما بعدها والصفحات الأولى من دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان وفجر الأندلس لحسين مؤنس ص ٥٢ وما بعدها والتاريخ الأندلسى لعبد الرحمن الحجى ص ٤٣ وما بعدها.

(١) انظر فى الفتح الصفحات الأولى من أخبار مجموعة (طبع مدريد) وتاريخ افتتاح الأندلس لابن حبيب وأيضا لابن القوطية والجزء الثانى من البيان المغرب لابن عذارى والروض المعطار لابن عبد المنعم الحميرى وتاريخ ابن خلدون (طبع مطبعة بولاق) ١١٦/٤ وما بعدها ونفح الطيب (طبعة إحسان عباس) ٢١٥/١ - ٢٢٠، ٢٣١

أو بعبارة أدق على فتحها أنه سأل عنها وعرف كثيرا من أحوالها الجغرافية والسياسية وأن ليس بها جيش حقيقى يحميها، فتطلع للاستيلاء عليها ونشر الإسلام بها، وشاور في ذلك الخليفة، وكان الوليد بن عبد الملك، وكان مثله شديد الطموح للفتوح وكانت جيوشه تتغلغل في أقصى الشرق: في أواسط آسيا وفي الهند، فشجع موسى، غير أنه أمره بالتمهل حتى يرسل حملات استكشافية، يتبين بها أين ينزل الجيش الفاتح وكيف يتحرك. وندب موسى لهذه المهمة قائدا من قواده هو طريف فعبر - مع أربعمائة من الجند ومائة فارس - إلى الشاطيء الإيبيرى في سنة ٩١ هـ / ٧١٠ م ونزل في موضع أقيمت به بلدة سميت باسمه، ولا تزال قائمة إلى اليوم، وقام طريف بعدة غارات تبين له منها أنه لا توجد بجنوبي إيبيريا وسائل دفاع تحميها. واستدار العام فرأى موسى أن يرسل حملة أكثر عددا بقيادة طارق بن زياد والى طنجة، فعبر في سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م مضيق الزقاق بجيش عداة سبعة آلاف، وتجمعوا عند جبل سُمى فيما بعد إلى اليوم جبل طارق. ويقال إن عبور هذه الحملة للمضيق - مثل عبور سابقتها - إنما كان بسفن أعدّها يوليان، ويدحض ذلك أنه كان لموسى بن نصير والعرب حينئذ أسطول يحمى شواطيء إفريقيا من الأسطول البيزنطى وأقيمت له دار صناعة كبيرة بتونس، وما دام موسى قد عزم على فتح إيبيريا فلا بد أنه أمر أسطوله بالتوجه غربا ليعبر - بحملة طريف ثم بحملة طارق - مضيق الزقاق، أما قصة عبور الحملتين على سفن يوليان فلا يؤيدها منطق الأحداث، وهى - فى رأينا - تكملة لما نسجه الخيال الشعبى من سخط يوليان على لذريق بسبب اعتدائه المزعوم على ابنته. ومما يتصل بهذا القصص الأسطورى عن فتح الأندلس الخطبة البليغة التى أضيفت إلى طارق، وقيل إنه ألقاها على جنوده بعد عبورهم مباشرة مفتتحا لها بقوله: «أيها الناس! أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم فليس لكم والله إلا الصدق والصبر» والخطبة من روعة البيان بحيث يبعد أن ينشئها مغربي تعرّب حديثا مثل طارق، غير أنها شاعت بين الأندلسيين شيوعا أعده الخيال الشعبى ليضيف إليها أسطورة إحراق طارق للسفن التى جاز بها مع جنده إلى الشاطيء الإيبيرى، وهى لو صحت لكانت عملا طائشا، وهو عمل لا يمكن أن يقدم عليه أى قائد يقدر مسؤولياته وتبعاته. ومما يؤكد أنها مختلقة ومن نسج الخيال الشعبى أنها لم تروى فى كتب التاريخ الأندلسى طوال خمسة قرون وأن أول من رواها الإدريسى الجغرافى المتوفى سنة ٥٦٠ للهجرة فى كتابه نزهة المشتاق.

وانحدر طارق بجيشه غرباً ماراً برأس بارز على الزقاق، أقيمت به - فيما بعد - مدينة الجزيرة الخضراء، وتابع مسيرته على المحيط، وعلم أن لذريق يعدّ جيشاً للقائه، فأرسل إلى موسى بن نصير يستمده، فأمدّه بخمسة آلاف بقيادة طريف، جازوا المضيق في سفن عربية، ولم يلبث طارق أن التقى مع لذريق في السهول المنبسطة شرقي قادس وهزمه هزيمة ساحقة، جعلت كثيراً من مدن إيبريا تفتح أبوابها لطارق وجنده، بينما فرّ لذريق إلى الشرق، وقُتل على نهر شقورة. وأرسل طارق أحد قواده إلى قرطبة فاستولى عليها. وتماذى طارق في الفتح حتى طليطلة عاصمة لذريق والقوط، فألقت له عن يد، وفرّ منها الأسقف والقساوسة يحملون مذبح كنيستها، ولحقت بهم كتيبة عربية عند بلدة صغيرة واستولت منهم على المذبح وذخائر كثيرة، وقيل لهم إنه مائدة سليمان، فسميت البلدة بعد ذلك باسم المائدة. وأخذت تشيع - منذ فتح طليطلة - أسطورة شعبية، مؤداها أنه كان بها بيت مظلم عليه أقفال كثيرة أمر بفتحه لذريق، فوجده فارغاً إلا من تابوت مغلق وجد فيه لفائف مدرجة رسمت فيها صور عرب مدججين بالسلاح وفي أعلاها كتابات بالعجمية تشير إلى أن أمة الرجال المصورين ستغلب على الأندلس حين تكسر أقفال هذا البيت، وواضح أنها أسطورة مختلقة ولا أساس لها من حقيقة.

ولما بلغ طارق طليطلة في وسط إيبريا رأى موسى بن نصير أن يسير إليه في قوة كبيرة ليشد أزره ويثبت فتحه ويمكن له، وحين نزل بجنده الجزيرة الخضراء بنى بها مسجداً، وظل كلما دخل بلدة كبيرة أسس بها بيتاً من بيوت الله، وكان قد استقدم معه مهندسا معماريا لبناء تلك البيوت أو المساجد، واتبع في إيبريا ما اتبعه في المغرب من تكليف بعض الفقهاء الداخلين معه تعليم أهل إيبريا القرآن الكريم وفرائض الإسلام. ومضى بجيشه غرباً يتم فتوح طارق واستولى على شذونة وإشبيلية وقرمونة وماردة ولقنت وانتهى إلى طليطلة، ويقول بعض المؤرخين خطأً إنه كان قد امتلاً غيظاً وحقداً على طارق لما فتح الله على يديه من البلاد، وزعموا أنه حين لقيه - بدلاً من تهنئته بانتصاراته - شدّ وثاقه وهمّ بقتله، وكل ذلك يخالف الأحداث، ولم يكن موسى من الطيش والحمق بأن يصنع ذلك بطارق الجدير بكل شكر وثناء. ويدل أقوى الدلالة على صحة ما نقول أن طارقاً ظل الساعد الأمين في استكمال الفتح.

وأقام موسى مع طارق في طليطلة طوال الشتاء في سنتي ٩٤، ٩٥ هـ/ ٧١٣ - ٧١٤ م. وضرب للبلاد عملة جديدة تحمل على أحد وجهيها شهادة أن لا إله إلا الله، وبذلك كان أول عربي حكم قطراً وأوريباً، وجاءه نبأ بانتفاض إشبيلية فأرسل إليها ابنه عبد العزيز

فأخذ الانتفاضة، واستولى غربيها على لُبلة وباجة. وكان مما كتب به موسى بن نصير إلى الخليفة يبشره بالفتوح قوله: «إنها ليست الفتوح ولكنه الحشر ولكنها الجنة». وخرج في ربيع سنة ٩٥ هـ/٧١٤ م - ومعه طارق - بالجيش إلى الشمال لإيبيريا قاصدا سرقسطة مفتاح منطقة وادي نهر إبرو، واستولى عليها كما استولى على لاردة شرقيها، وجاءه حينئذ أمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك بوفوده عليه مع طارق لتقديم تقرير مفصل إليه عن الفتوح، ورأى أن يؤخر الوفود عليه بضعة أشهر حتى يستكمل فتح إيبيريا، إذ رأى بلدانها ومعاقلها في الشمال تستسلم له دون مقاومة تذكر. وللإسراع بالفتح أمر طارقاً أن يتجه بجنده إلى الشمال الشرقي فاستولى على أراجون، واتجه موسى إلى الشمال الغربي، ولحق به طارق بعد استيلائه على أراجون، واستولى في طريقه على ليون بمنطقة قشتالة، وتوغل موسى في مسيرته وعبر جبال كنتبريه، واستولى على حصن أُنْبُط في أقصى الشمال، ووصل إلى خليج بسقاية (بسكاي) على المحيط. وأحس أنه أنهى فتح إيبيريا إذ استولى مع طارق على أقاليم قطلونيا في الشرق وأراجون والبشكنس وقشتالة وجليقية في الشمال إلى أقصى الغرب. فرأى أن يلبي مع طارق أمر الخليفة بوفودها عليه، وأتاب عنه في حكم البلاد ابنه عبد العزيز. ومن سوء حظها أن الموت كان قد أسرع إلى الخليفة الوليد، وخلفه أخوه سليمان فلم يحسن لقاء الفاتحين العظمين، ولم يعودا بعد ذلك إلى إيبيريا، ولا عُرف مصيرهما، ويقال إن موسى حجَّ مع سليمان سنة ٩٧ هـ وإنه توفي بالطريق في المدينة أو في وادي القرى، أما طارق فيبدو أنه عاد إلى موطنه مكثفياً بما أدى في سبيل الله من جهاد وفتوح عظيمة.

وكان موسى وطارق قد استوليا على أهم البلدان في إيبيريا، وبقيت فيها بلدان وجهات لم تخضع لها، فأخضعها ابنه عبد العزيز في ولايته القصيرة قبل مقتله: (٩٥ - ٩٧ هـ). وكان قد اتخذ إشبيلية عاصمة له، واتجه منها إلى الغرب فاستولى على باجة ويابرة وسنترين وقلمرية، وبذلك استكمل فتح غرب إيبيريا، وكانت لاتزال في الجنوب الشرقي جهات وبلدان لم تخضع للعرب خضوعاً تاماً، فرأى عبد العزيز أن يخضعها، وبدأ باللمة فاستولى عليها كما استولى على غرناطة، وولى وجهه نحو إقليم مرسية، ولم تكن أنشئت فيه إنما أنشئت فيها بعد، وكانت أريولة عاصمة هذا الإقليم، وكان يحكمه قائد قوطي تسميه المصادر العربية تدمير، فامتنع في مدينته وصمد لحصار المسلمين، حتى إذا لم يبق في قوس صبره منزح لجأ إلى حيلة، هي نشر نساء مدينته لشعورهن ووقوفهن على سور المدينة وبأيديهن القضاة إيهاماً للمسلمين بأنه لا يزال في المدينة عدد

ضخم من الرجال البواسل المتهيين لمواصلة القتال، وخرج هو وطلب لقاء قائد المسلمين عبد العزيز، فاستأمنه، فأمنه، وعقد له الصلح ولأهل بلده على إتاوة وجزية يؤدونها. وفي رأينا أن هذه الحيلة للاستئمان تُعدُّ - بدورها - من أساطير الفتح الشعبية الكثيرة التي كانت تتداول في إيبيريا. إذ يكفي أن يخرج هذا القائد بعد حصار طويل لقائد المسلمين المحاصرين لبلدته ويطلب الأمان له ولمدينته فيجيب إلى طلبه كما حدث كثيرا في الفتح الإسلامية.

(ب) عصر^(١) الولاة (٩٥ هـ/٧١٤ - ١٣٨ هـ/٧٥٥ م)

عملت عوامل متعددة على كثرة الاضطرابات في هذا العصر، منها كثرة العناصر التي تكوّن منها الشعب في الأندلس، إذ كان منه أسبان مختلفو الجنسيات كما أسلفنا ويهود، وحل به بربر كثيرون وهم ينقسمون إلى قبيلتين كبيرتين: البتر والبرانس، كما حل به العرب وهم ينقسمون بدورهم إلى عدنانية أو مضرية ويمنية أو قحطانية، وكانت بينها خصومات قديمة أشعلتها في العصر الأموي حروب قيس المضرية وكتب اليمانية في موقعة مرج راهط، واستعادت القبائل العربية في الأندلس هذه الخصومات سريعا. وكان البربر البتر يأخذون صفّ العدنانية والقيسية، بينما البربر البرانس كانوا يأخذون صفّ القحطانية وكتب اليمانية، وكان الوالي على الأندلس إذا كان يمينيا أو كلبيا تعصب لقومه، وبالمثل إذا كان عدنانيا أو قيسيا مماهيا لكثرة الاضطرابات والقتال في تلك البلاد. وعامل ثان هيا لها هو كثرة تعيين الولاة هناك حتى بلغوا في نحو أربعين عاما اثنين وعشرين واليا، فلم يكن الوالي يشعر بشيء من الاستقرار. وعامل ثالث هيا بدوره لكثرة الاضطرابات في الأندلس هو بعدها عن السلطة المركزية في دمشق، فكان الخلفاء الأمويون لا يعرفون شئونها معرفة واضحة، مما جعلهم يكلون تعيين ولايتها إلى ولايتهم على المغرب، مع أنها كانت أكثر من المغرب ثراء وخراجا، وكانت تنعم بغير قليل من الحضارة، بينما أهل المغرب كانوا - وخاصة في الداخل بعيدا عن الشواطئ - بدوا غير متحضرين، وكان أهل الأندلس يأنفون من هذه التبعية، والخليفة الوحيد الذي تنبه إلى

وما بعدها و١٤/٣ وما بعدها وفجر الأندلس
لحسين مؤنس ص ١٢٢ وما بعدها والتاريخ
الأندلسي لعبد الرحمن الحجى ص ١٣١
وما بعدها.

(١) انظر في ولاة الأندلس بعد الفتح كتاب
الأخبار المجموعة وافتتاح الأندلس لابن القوطية
والجزء الثاني من البيان المغرب لابن عذارى
وتاريخ ابن خلدون ١١٨/٤ ونفع الطبيب ٢٣٤/١

ذلك هو عمر بن عبد العزيز، إذ فصل ولاية الأندلس عن ولاية المغرب، وولّى عليها سنة مائة للهجرة السمح بن مالك، فطبق سياسة عمر في إنصاف الإِسبان المغلوبين والمساواة في الحقوق بينهم وبين المسلمين من العرب والبربر، ودفع الناس بقوة إلى الجهاد في سبيل الله وراء جبال البرينيه في غالة (فرنسا) وتوالت انتصاراته حتى مدينة تولوز، وثبتت أقدام المسلمين في ولاية سبتانية جنوبي فرنسا وعاصمتها أربونة بحذاء البحر المتوسط، ولم يلبث ان استشهد في آخر سنة ١٠٢ للهجرة.

وكان عمر بن عبد العزيز قد توفي قبل السمح فعادت الأندلس تابعة لوالى المغرب، فولى عليها عنبة الكلبى، واقتدى بالسمح في متابعة الجهاد وراء جبال البرينيه واستولى على قرقشونة في داخل سبتانية، وتوغل في وادي نهر الرون حتى سانس على بعد ٧٠ كيلو مترا من باريس واستشهد سنة ١٠٧ وولّى عليها والى المغرب يحيى بن سلمة الكلبى وظل عليها حتى سنة ١١٠ وكان شديد العصبية - مثل عنبة الوالى قبله - لقبيلته كلب اليمنية، ولقيت قيس المضرية منها الأمرين، وولى بعدها ولاة قيسيون كالوا لكلب الصاع صاعين أهمهم الهيثم الكلابى وله بلاء حسن في الجهاد بأرض غالة، ويقال إنه توغل فيها حتى ماسون شمالي ليون. ووليتها عبد الرحمن الغافقى فأعاد إلى الأندلس الهدوء والنظام وقاد جيشا كبيرا لغزو غالة، وواصل انتصاراته بين نهري جرونه ودوردوني، ومضى في اتجاه اللوار وكان شارل مارتل قد حشد له جيشا كثيفا من الفرنج والألمان وشعوب الشمال الأوربي، والتقى به لسنة ١١٤ هـ/٧٣٢ م بين تور وبواتيه على بعد مائتي كيلو متراً من باريس، وصمد المسلمون عشرة أيام ينازلون أعدادا ضخمة، وفجأهم استشهاد قائدهم عبد الرحمن في المعركة فانسحبوا. وولّى الأندلس عبد الملك بن قطن الفهرى لمدة سنتين وخلفه عليها سنة ١١٦ عقبه بن الحجاج القيسى وظل يليها خمس سنوات محمود السيرة، ورابط في جليقية بأقصى الشمال الغربي من إيبيريا حتى لم يبق فيها قرية إلا فتحت ماعدا حصن بلاى بالقرب من خليج بسكاي لوعورة الطريق إليه، وتخطى جبال البرينيه إلى سبتانية وعسكر بجيشه في عاصمتها أربونة وتقدم على نهر الرون واستشهد في قرقشونة. وباستشهاده يتوقف هذا المد العربي الإسلامى وراء جبال البرينيه في غالة (فرنسا) بعد استمراره عشرين سنة أو تزيد، سجل فيها العرب صفحات انتصار مجيدة بجانب انتصاراتهم وفتوحاتهم العظيمة في إيبيريا.

وإنما عاق العرب عن المضى في هذه الفتوحات والانتصارات ما أفضوا إليه في الأندلس - منذ أول العقد الثالث في القرن الثاني - من عصبية عنيفة أخذت تضطرم

اضطرابا شديدا لا بين العرب المضرية واليمينية فحسب، بل أيضا بين العرب أنفسهم والبربر وكانت قد اندلعت العصبية بينها في المغرب، واضطر هشام بن عبد الملك أن يرسل جيشا ضخما بقيادة كلثوم بن عياض القشيري وابن أخيه بلج بن بشر لإخماد ثورة ضارية للبربر، فهزم الجيش مرارا، واضطرت قوات منه تبلغ عشرة آلاف كان يقودها بلج بن بشر أن تلجأ إلى مدينة سبتة، وحاصرها البربر وأصابها جوع قاتل فكاتب بلج بن بشر والى الأندلس أن يسمح له بدخولها مع جنده، فتردد، وكان قد تطاير شرر كثير من فتنة البربر بالمغرب إلى إخوانهم في الأندلس لإبعاد العرب لهم عن أداة الحكم ولما ينزلونه بهم من عسف، فتأروا في بلدان كثيرة هناك وخشى الوالى مغبة ذلك فسمح لبلج بن بشر أن يدخل الأندلس سنة ١٢٣ بألافه العشرة. وتعاون مع الوالى في القضاء على ثوراتهم، مما جعلهم يتنادون - وخاصة في شمال البلاد - بالرجوع إلى موطنهم في المغرب. وكانت من البربر كثرة في جليقية وحوض نهر الدويرة وفي الأراضى الواقعة شالي نهر تاجه، فتركوا تلك الديار جميعا تنعى أهلها، وكان لهذه الهجرة البربرية الجماعية أسوأ الأثر على مستقبل الإسلام لا في الأندلس وحدها بل أيضا في ساحات الجهاد والفتوح خلف جبال البرينية في غالة، فقد توقف هذا الجهاد، وليس ذلك فحسب، إذ ضاعت جليقية وأراضى حوض نهر الدويرة أو أشرفنا على الضياع، فقد تركها المغاربة لنصارى الشمال، وأوشك أن يكون ما تركوه وخسره الإسلام نحو ربع إيبيريا، تركوه للنصارى دون حرب أو ما يشبه الحرب، ليتجمع النصارى فيه ويعمره ويغيروا على المسلمين منه طوال القرون التالية ويخرجوهم من ديارهم وفردوسهم الأرضى.

ولم يلبث بلج بن بشر أن اشتبك بعد ذلك مع جنوده الشاميين في حروب مع والى الأندلس وجنوده من العرب الفاتحين، وسموا أنفسهم البلديين تمييزا لهم من هؤلاء الشاميين الطارئين. وانتصر بلج ولم يلبث أن توفى وعادت الحرب جذعة بين العرب الشاميين والعرب البلديين ومن انضم إليهم من البربر المستقرين في الأندلس إذ كانوا يرون أنفسهم - مثل العرب البلديين - أحق بالأندلس وخيراتهما. وهاجت الفتن والحروب بين الفئتين، وولى - من قبل والى المغرب - أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي، وحاول أن يعيد إلى الأندلس الهدوء والنظام، غير أنه أفرط في التعصب لقومه من كلب واليمينية ضد القبائل المضرية والقيسية ونشبت فتنة ضارية، فخلع سنة ١٢٨، ولم تهدأ البلاد، فقد احتدمت الفتنة بين اليمينية والمضرية وأيضاً بين العرب الشاميين والبلديين، واستطاع الصميل بن حاتم زعيم المضرية أن يضم تحت لوائه قومه ومعهم

العرب الشاميون بينما انضوى اليمينيون والعرب البلديون والبربر تحت لواء يوسف بن عبدالرحمن الفهري، واتفق الطرفان سنة ١٢٩ أن تكون ولاية الأندلس ليوسف ويتخذ الصميل مستشاراً له ووزيراً، وبذلك عاد الأمن والنظام إلى الأندلس حتى سنة ١٣٨ ولكنها لم تعد إلى الجهاد في غالة (فرنسا) ولا إلى الحفاظ على ما أضعته من الأندلس الهجرة البربرية الكبرى، مما أتاح الفرص لنصارى الشمال أن يقيموا لهم دُولاً ما زالت تناضل المسلمين قروناً متطاولة إلى أن سقطت غرناطة آخر معاقلهم بتلك الديار.

٣

الدولة الأموية^(١)

لا نصل إلى أواخر السنة الثانية والثلاثين بعد المائة حتى يقضى العباسيون على الدولة الأموية في المشرق وقد مضوا يستأصلون الأمويين في مذابح جماعية، وكأنهم لا يريدون أن يبقوا منهم على وجه الأرض باقية. في هذه الأثناء فرَّ شاب أموي في التاسعة عشرة من عمره إلى إفريقيًا هو عبد الرحمن بن معاوية ابن الخليفة هشام بن عبد الملك، واستطاع أن يدخل الأندلس - ولذلك سُمِّي عبد الرحمن الداخل - وأن يقبض على زمام الحكم بها ويجعله وراثياً في أسرته لمدة ثلاثة قرون متوالية. وبذلك أثبت أن الدولة الأموية إذا كانت سقطت في المشرق فقد قامت في الأندلس وكل ما هناك أن العاصمة انتقلت من دمشق إلى قرطبة.

وأُحيط فرار عبد الرحمن إلى إفريقيًا ودخوله إلى الأندلس بكثير من المبالغات والأساطير، من ذلك أنه كان يأحدي قرى العراق مع أختين له وأخ صغير في الثالثة عشرة من عمره حين كان العباسيون ينكلون بأفراد أسرته، وحاصرت جنودهم القرية،

والمقتبس من أبناء أهل الأندلس: الأجزاء المنشورة بتحقيق الدكتور مكى والحجى وشالميتا ومعه رفيقان. وراجع دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله عنان ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس والتاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحجى.

(١) انظر في الدولة الأموية بالأندلس البيان المغرب لابن عذارى الجزء الثانى وأخبار مجموعة والجزء الأول من المغرب وأعمال الأعلام لابن الخطيب، والذخيرة لابن بسام في خلفاء الحقبة الأخيرة للدولة الأموية ونفح الطيب في مواضع مختلفة وتاريخ ابن خلدون ١١٦/٤ وما بعدها

فاصطحب عبد الرحمن أخاه وحمل ما استطاع من المال وأوصى أخته أن يرسل إليه بموضع عينه لها في الشام مولاه بدرا ومولاهما سالما. وحين كان بهم مع أخيه بعبور الفرات لحقتها جنود العباسيين وعرضت عليها الأمان، وكان التعب قد أخذ بخناق أخيه فاستجاب لهم. أما هو فألقى بنفسه في الفرات، وبمجرد أن وصل إلى الشاطئ رأى سيف الجند العباسي تنوش أخاه، فحمد الله أن نجا بنفسه، واتجه إلى الموضع الذي عينه لأخته بالشام فوجد بدرا وسالما في انتظاره ومعها مال وجواهر. ومضى معها مسرعاً إلى إفريقيا وأخذ ينتقل فيها بين قبائل البربر، واستقر عند أخواله من قبيلة نفزة بالقرب من طنجة. وكان سالم قد أعياه طول التنقل فعاد إلى الشام أما بدر فظل مع مولاه. وتساوق مع هذه الأسطورة أسطورتان تزعم أولاهما أن والى المغرب أحسَّ بخطر عبد الرحمن فأرسل في طلبه، وكاد أن يقع في يد طالبه، لولا أن خبأته امرأة من قبيلة نفزة في ثيابها، وتزعم الأسطورة الثانية أن عم أبيه مسلمة بن عبد الملك كان على علم بالنجوم وأنها أخبرته أن الأمير عبد الرحمن سيتحقق الأمر على يده. ولم يكن مسلمة على شيء من العلم بالنجوم، إنما هي أسطورة كالأسطورتين السابقتين وكأساطير أخرى تتصل برحلة عبد الرحمن وجميعها وضعها قُصاص شعبيون بعد أن عظم شأن عبد الرحمن وبيته في الأندلس. وتساوق أخبار كثيرة عن إرسال عبد الرحمن بمولاه بدر إلى موالى أسرته الأموية في الأندلس واستجابتهم له واستجابة اليمانية التي طالما أيدت أسرته في صُفين وفي مرج راهط. ودخل عبد الرحمن الأندلس وكونَ سريعاً جيشاً للقاء الوالى يوسف الفهرى ومستشاره الصميل على مشارف قرطبة. واندحر جيشها وأسر الصميل ومات في السجن خنقاً، أما يوسف ففرَّ إلى طليطلة وفي إحدى قراها لقي حتفه.

وفي مساء هذا الانتصار في اليوم العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ للهجرة دخل عبد الرحمن القصر بقرطبة وصلى بالناس وخطب في الجند معلناً ميلاد الدولة الأموية في الأندلس، وأخذ يحاول جاداً أن تكون دولته في قرطبة امتداداً لدولة آباءه في دمشق، وكان أول ما مهَّد به لذلك قطعه الخطبة للعباسيين بعد عشرة أشهر من استيلائه في الأندلس على صولجان الحكم، وحاول بعض دعاة العباسيين أن يثوروا به في أول أمره، فقبض عليهم وحزَّ رؤوسهم، وقيل إنه وضعها في جَوَاليق (أوعية) وعلى رأس كل منهم بطاقة تحمل اسمه وأرسلها إلى والى العباسيين في القيروان، وقيل: بل أرسلها إلى المنصور، فقال: الحمد لله الذى جعل بينى وبين عبد الرحمن صقر قريش بحراً. وأخذ عبد الرحمن يعمل على تثبيت الحكم بالأندلس في بيته وأن يكون وراثياً في أبنائه وأحفاده، وبذلك حمى

الأندلس لمدة ثلاثة قرون من الاضطرابات والحروب الأهلية وأن تتوزع إلى أندلسات كثيرة. كما حدث في القرن الخامس الهجري لعهد ملوك الطوائف.

وهذا الحكم الوراثي حاكى فيه عبد الرحمن وأبناؤه وأحفاده حكم أسلافهم الأمويين في دمشق، وكانوا - مثلهم - حكاماً مستبدين لا يشركون في حكمهم أحداً، فكل أزمة الحكم بأيديهم، وسنرى عوامل في الأندلس تلطف هذا الحكم الاستبدادى وتخففه، إذ كان علماء الدين والقضاة والعامّة يأبون في أحوال كثيرة إلا أن يُسمع لهم ويؤخذ بوجهات نظرهم، ولا نصل إلى عهد عبد الرحمن بن الحكم حتى ينشئ في الأندلس نظاماً للوزارة يشبه نظمها الحديثة. وعلى نحو ما كان الخلفاء الأمويون في دمشق يتخذون لأبنائهم المؤدبين والمعلمين كذلك اتخذ عبد الرحمن الداخل وأبناؤه المعلمين والمؤدبين لأبنائهم في قرطبة، وكان لذلك أثره في رعاية الأمويين في الأندلس للأدب وأهله وأيضاً للعلم وأصحابه على نحو ما كان أسلافهم في دمشق يرعونهم. وأستنوا سنة أسلافهم في بناء القصور بالبادية على نحو ما نعرف عن هشام جد الأسرة من بنائه لنفسه قصرًا بعيداً عن دمشق في البوادي سباه الرصافة أو منية الرصافة، وحاكاه في قرطبة حفيده عبد الرحمن الداخل فبنى لنفسه قصرًا شمالي قرطبة سوى قصره المواجه لجامعها الكبير اتخذه للتنزه ولسكنه في كثير من أوقاته، وتبعه أبناؤه بينون لأنفسهم قصورًا خارج قرطبة، وكانوا كذلك بينون دورًا لأبنائهم يعلمون فيها ويؤدّبون. واقتدى عبد الرحمن بأسلافه في بناء الجوامع والمساجد، وقد بدأ بناء جامع قرطبة الكبير وظل الأمراء بعده يزيدون فيه حتى أصبح يضارع الجامع الأموي الكبير في دمشق، إن لم يتفوق عليه، وبنى مسجدًا في إشبيلية وفي بلدان أخرى متعددة. وعنى عبد الرحمن الداخل بالتنظيم الإداري والشئون المالية على نحو ما كان يعنى أسلافه الأمويون في دمشق. ومن تنمة هذه المحاكاة لأسلافه اتخذه دارًا للسكة وضرب النملة فيها باسمه، واتخاذ مذهب الأوزاعي فقيه الشام المتوفى سنة ١٥٧ للهجرة أساساً لفتوى والقضاء في الأندلس، ومن تنمة ذلك أيضًا أن تجده يسمى وزيره عبد الواحد بن مغيث الغساني حاجبًا بالضبط كما كان يسمى أسلافه في دمشق وزراءهم، وظل ذلك بعده فترة.

وشغل عبد الرحمن الداخل - وأبناؤه بعده - بثورات داخلية كثيرة على نحو ما شغل أسلافهم في دمشق بثورة ابن الأشعث في العراق وثورات الخوارج والشيعة، وكانت ثورات الأندلس دائمًا حادة عنيفة بسبب ما كان بها من عصبية - تحدثنا عنها - بين اليمينية والمضرية، وبين العرب البلديين والشاميين، وبين العرب والبربر، وأخذت تظهر

عصية جديدة هي عصبة المؤلدين من أبناء وأحفاد من أسلموا من الإيبان وانضم إليهم المسلمة (المسلمون الجدد من الإيبان) وكذلك المسيحيون ممن استعربوا وغير المستعربين، وقد تنادوا بأن البلد بلدهم وهم أحق بها وأخذوا يثورون، وشبت بسبب ذلك كله ثورات في الجزيرة الخضراء وباجة وإشبيلية وطليلة وأخدها عبد الرحمن جميعاً. وبجانب هذه الحروب الداخلية كانت هناك حروب في الشمال مع الإمارات الإسبانية، وعلى نحو ما حوّل أسلافه في دمشق الحرب بينهم وبين بيزنطة، إلى حرب صوائف، وهي حملات صيفية كانت توجّه إلى حدود بيزنطة كذلك صنع عبد الرحمن وخلفاؤه في قرطبة. وبذلك توقفت حركة الفتوح التي رأيناها في عصر الولاة والتي كانت قد توغلت في جنوبي فرنسا الغربي حتى بواتييه ونهر الرون، إذ أخلى عبد الرحمن كل ما كان بأيدي العرب من أرض شمالي جبال البرينيه بفرنسا واقتصر على ما بيده من الأندلس. وكان ينفس عليه سلطانه واليان عريبان هما واليا سرقسطة وبرشلونة عاصمة قطلونيا وبلغا من خيانتها أن اتصلا بشارلمان ملك الفرنجة وإمبراطور الغرب وأغرياه بغزو الأندلس سنة ١٦١ هـ / ٧٧٨ م واقتحم جبال البرينيه وحاصر سرقسطة طويلاً واضطر إلى رفع الحصار عنها وعاد إلى بلاده، ولكن بعد أن أنشأ ولاية في قطلونيا مهدت لاستقلال تلك المنطقة. وفي أثناء عودته أخذ الأندلسيون وحلفاؤهم من البشكنس ينقضون على مؤخرته ومزقوها تمزيقاً هي وقائدها رولان الذي تكونت حوله - فيما بعد - ملحمة شعبية باسم ملحمة رولان.

وتوفّي عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٢ وخلفه ابنه هشام بعهد منه، وقد بايعته العامة بقرطبة، مما يدل على أن الحاكم الأموي هناك كان يضع في اعتباره رضاها عنه، وليس ذلك فحسب. فقد اتخذ هشام مستشارين له من الفقهاء أو مشاورين يرجع إليهم في تدبير الأمور، ويروى أن مصعب بن عمران قاضى قرطبة حكم على أحد رجال هشام بحكم فشكاه إليه، فقال له: والله لو أمرني بالخروج عن مقعدى (إمارتى) لخرجت عنه. وعلى هذا النحو كان يخفف من حدة استبداد الحاكم الأموي في قرطبة الرعية التي كان يخشاها والقضاة والفقهاء أو علماء الدين، وظل ذلك مرعياً طوال أيام الأمويين في الأندلس حرصاً على طلب السمعة وحسن الأحدثوة بين الرعية. وظلت جيوش هشام تقضى على ثورات المسيحيين في الشمال إلى أن توفى سنة ١٨٠ للهجرة.

ورلى بعده ابنه وولى عهده الحكم، وكان في السادسة والعشرين من عمره، وهو أول من استكثّر من الصقالبة، إذ بلغوا في عهده خمسة آلاف. ومع حزمه كان يأخذ بشيء من

اللهو ويخرج للصيد، ولم تعجب سيرته الفقهاء والعامّة، وكثّر تعرض الناس له في الطريق بالسباب، فصلب في سنة ١٩٠ نفرا من الفقهاء، مما جعل مراجل الغضب عليه تغلى في قرطبة إلى أن انفجرت ثورة ضده في جنوبيها كان يقودها الفقهاء، واتسعت فشملة قرطبة، وتحركت جموع الشعب نحو قصره تطالب بعزله، فسلب عليهم جنده من الصقالبة فسفكوا دماء كثيرين وتبعوهم في دورهم بالهدم والإحراق وهدموا الرض الجنوبي منشأ الثورة ومركزها. وبعد ثلاثة أيام أعلن الحكم الأمان للثائرين على أن يخرجوا من قرطبة، فخرج منهم جمهور إلى طليطلة، وخرج جمهور ثان إلى دار الحرب في الشمال وجمهور ثالث ركب البحر إلى الإسكندرية يبلغ نحو خمسة عشر ألفا، وأنزلهم عبدالله بن طاهر والى مصر للمأمون جزيرة كريت سنة ٢١٢ وأنشأ وا فيها دولة إسلامية ظلت بها إلى أن استعادها البيزنطيون سنة ٣٥٠ للهجرة. وكانت جيوش الحكم ماتنى غادية رائحة لحرب المسيحيين في الشمال، واستطاع البشكنس بقيادة ونقة الاستيلاء على مدينة بنبلونة سنة ١٨٣ وأقاموا من حينئذ مملكتهم نبارة وظلت وراثية في أبناء ونقة. وحاصرت في سنة ١٩٠ قوات فرنسية مدينة برشلونة، وسقطت بعد مقاومة عنيفة، وبذلك ضاع من أيدي العرب في الشمال الشرقي إقليم قطلونية كما ضاع إقليم بنبلونة، وكان قد ضاع في عهد عبد الرحمن الداخل إقليم جليقية وأشتوريش. ويقول ابن سعيد في المغرب إن الحكم كان من أشد بنى أمية في الأندلس إقداما إلى ما جمع من جودة الضبط وحسن السياسة وكان يشبه بالمتصور العباسى في شد الملك وقهر الأعداء وتوطيد الدولة، وتوفى سنة ٢٠٦ للهجرة.

وولى بعده بعهد منه ابنه عبد الرحمن، ويسمى عبد الرحمن الأوسط لتوسطه بين جده عبد الرحمن الداخل وحفيده عبد الرحمن الناصر، وفي عهده تكاملت أسس الحضارة العربية في الأندلس، وكانت ثلاثة أسس من أسسها أخذت في الاستقرار هناك هي الدين الحنيف ولغته العربية ودعوته إلى العلم والتعلم وكانت الأندلس قد سارعت إلى العناية بالعلوم اللغوية والدينية، فدفعها عبد الرحمن الأوسط إلى العناية بعلوم الأوائل، وضم إلى ذلك أساسا رابعا هو الجانب المادى للحضارة الأندلسية، إذ شغف ببناء القصور وأثاثها ورياشها الفاخرة وحاكاه الأندلسيون مما جعل التجار يحملون إلى الأندلس نفائس المشرق وطرائفه، وانضم إلى ذلك أساس خامس فيها اكتمل للمجتمع من تكوين فنى وحضارى عن طريق وفود زرياب المغنى تلميذ إسحق الموصلى على قرطبة في أول عهد الأمير عبد الرحمن وقيادته هنالك نهضة للغناء والموسيقى وبثه في المجتمع الأندلسى

جوانب حضارية جديدة في الملبس والمأكل والهيئة.

وبنى عبد الرحمن بقرطبة دارا للسكة وضرب الدراهم باسمه، وهو الذى وضع أساس الحضارة الأندلسية من وجهة تنظيم الحكم وضبط قواعده إذ اتخذ مجلس وزراء جعل له رئيسا باسم الحاجب، وجعل له ولمرءوسيه من الوزراء بيتا فى قصره يجلسون فيه على فرش منضدة، وجعل الأمر شورى بينهم، واختص كل منهم بشأن من شئون الدولة فوزير للمال ويسمى الخازن ووزير للمظالم ووزير للثغور أو الحرب، وعدّ ابن حيان وزراءه وبلغ بهم ستة عشر طوال أيامه. وكان الوزراء يجتمعون مع رئيسهم يوميا، وكل منهم يعرض مسائله ويتشاورون فيها، وإذا قضاوا بأمر عرضه الحاجب على الأمير، فإن قبله فيها والإردُّ إلى مجلس الوزراء لإعادة النظر فيه. وعلى نحو ما عُنَى عبد الرحمن بتنظيم الوزارة عنى بالخطط، وقد تكون للوزارة خطة واحدة كخطة المظالم وخطة الثغور، وكانت أهم الخطط خطط القضاء وأجلها خطة قضاء الجماعة بقرطبة، ويليها خطة صاحب الرد فيما استراهه الحكام وردوه عن أنفسهم، وخطة الشرطة الوسطى (وقد تسمى الكبرى) وكان لصاحبها الضرب على أيدي أصحاب المناصب والجاه فى الظلمات، وخطة الشرطة الصغرى وكان صاحبها خاصا بالعامه، وخطة السوق لصاحب الحسبة المشرف على الأسواق. وبذلك كله أحكم عبد الرحمن النظام الإدارى للدولة، وظل هذا النظام بعده إلى نهاية أيامها. وكان لا يصدر فى أمر إلا بعد الرجوع إلى مجلس الوزراء، وكان له مستشارون من القضاة والفقهاء لا يحدد عن مشورتهم، وبذلك كله أرسيت قواعد الحكم الأموى فى قرطبة، إذ أصبح الحاكم يحكم عن طريق مجلس الوزراء والقضاة ورجال الدين، مما جعل الحكم هناك شوريا إلى حد كبير. وكان يقال لأيامه أيام العروس لما شمل الناس فيها من أمن ورخاء، وزاد فى جامع قرطبة رواقين فى الجنوب وبنى فى الأندلس جوامع كثيرة، وتولع مثله ببنائها جواربه.

وفى أيامه نشبت فتنة بين اليمينية والمضرية فى تدمير (مرسية) ظلت سبع سنوات إلى أن أخمدت، وكثيرا ما كانت جيوشه تغزو المسيحيين فى الشمال، وأحيانا كان يقود تلك الحملات بنفسه ويغنم غنائم كثيرة. وغزا النورمان (سكان إسكنديناوة) شواطئ الأندلس الغربية عند أشبونة وقادس فى آخر سنة ٢٢٩ وصعدوا من مصب الوادى الكبير إلى إشبيلية، ونكل بهم قواده وولت فلوهم إلى المحيط. وأرسل إليه إمبراطور بيزنطة بهدية، فأرسل إليه الشاعر القرطبى يحيى الغزال بهدية مماثلة، ويقال إنه قضى فى بيزنطة ثلاث سنوات، ولما عاد أرسله بهدية إلى ملك النورمان، ونجح فى السفارتين

أوالوفادتين جميعا، وعنى عبد الرحمن الأوسط ببناء أسطول لحراسة الثغور على المحيط الأطلسى وعلى البحر المتوسط وفتح به سنة ٢٣٤ جزائر البليار ميورقه ومنورقة ومما يُذكر له بنيانه ثغر مُرسية على مقربة من ساحل البحر المتوسط. وفي أواخر أيامه أشعل المتعصبون من أحبار النصارى فتنة دينية ضد الإسلام والمسلمين، وأثاروا بعض القسس والشباب فكانوا يجاهرون بسبِّ الدين الحنيف ومقدساته حتى إذا لم يبق في قوس الصبر منزع طلب عبد الرحمن إلى رئيس الأساقفة عقدَ مجمع كنسى فى قرطبة للنظر فى هذه المحنة، وعُقد المجمع وأصدر قرارا باستنكار هذه الفتنة الحمقاء وتحريم سب الإسلام. وهدأت الأمور، ولم يلبث عبد الرحمن أن لبى نداء ربه فى سنة ٢٣٨ للهجرة.

وولى بعده ابنه محمد بعهد منه، وطالت إمارته فى الأندلس حتى وفاته سنة ٢٧٣ للهجرة، وكان محبا للعلوم مؤثرا لأهل الحديث حسن السيرة، وزاد فى ترتيب الأداة الحكومية مستكثرا من الوزراء حتى بلغوا ثلاثة وعشرين فى عهده. وكان مثل آبائه يعامل المسيحيين معاملة حسنة، وفسح للمستعربين منهم ممن اتخذوا العربية لسانا لهم فى مناصب الدولة، من ذلك تعيينه لقومس بن أنتيان متولى جمع الضرائب من أهل الذمة للدولة كاتباً له سنة ٢٤٦ ولم يلبث أن أسلم وحسن إسلامه ويُذكر أنه استعفى الأمير محمداً أثناء اعتناقه النصرانية من العمل يوم الأحد، فأعفاه وأعفى جميع الموظفين، وأصبح ذلك بعده - كما يقول ابن حيان - عاماً فى الأندلس. وفى سنة ٢٤٥ أغار النورمان غارتهم الثانية على شواطئ الأندلس الغربية على المحيط وشواطئها الشرقية على البحر المتوسط وصدَّهم الأسطول ونكّل بهم، فلم يعودوا بعد ذلك للإغارة على الأندلس. وكثرت الفتن والحروب فى عهد الأمير محمد كما كثرت الثورات، وفى مقدمتها ثورة عبد الرحمن بن مروان الجليقى فى بطليوس بالغرب سنة ٢٦٠ وثورة عمر بن حفصون فى مالقة سنة ٢٦٧ ودخل فى هذه الثورات عناصر جديدة من المسالمة (المسلمين الجدد) والمولدين (أبناء وأحفاد من أسلموا من الإسبان) وتحيزت النصارى إلى هؤلاء الثوار وصاروا إلباً على العرب يقولون نحن أولى بحكم الأندلس لأنها بلدنا ووطننا. وظلت الثورتان المذكورتان محتدمتين وظلت جيوش الأمير محمد تحاول القضاء على هذه الفتن مع خروجها من حين إلى حين لحرب المسيحيين فى الشمال. وكان مشغولاً بالبنين فزاد قصور آبائه فخامة، وبني لنفسه قصراً أنيقاً فى الجنوب الغربى لقرطبة.

وخلف محمداً فى حكم الأندلس ابنه المنذر لمدة عامين شغل فيها بحرب عمر بن حفصون فى قلعة بُبشتر بين مدينتى رُنْده ومالقة، وحصره فيها، غير أن الأجل وافاه أثناء

الحصار، فعاد به أخوه عبد الله إلى قرطبة في صفر سنة ٢٧٥ وولى الإمارة بعده. وكان عبد الله يكثر من تلاوة القرآن والتهجد وصلاة الجماعة مع العامة، وكان مجلسه يحفل بطبقات أهل الآداب والعلوم، وفتح للعامّة باباً في قصره لأخذ رقاعهم والنظر في ظلاماتهم، وبذلك انتعشت الرعية في عهده، غير أن الثورات والفتن تفاقمت تفاقماً شديداً في أيامه، حتى لقد كادت تعم كُور الأندلس، إذ ماجت جميعها بالفتنة والثورة بين المولدين والمسالمة والنصارى من جهة وبين العرب من جهة ثانية أو بين البربر والعرب أو بين العرب بعضهم وبعض فبجانب ثورتي عبد الرحمن بن مروان الجليقي وابن حفصون كانت هناك ثورات عبد الملك بن أبي الجواد في باجة وابن وضاح في لورقة بكورة مرسية وغيرهما كثيرون، سوى من ثار من البربر أمثال بني ذى النون في شنتبرية. وفي أثناء هذه الفتن والثورات التي امتدت في عهد الأمير محمد وطوال عهد ابنه المنذر وعبد الله استطاع ألفونس الثالث ملك ليون والجالقة أن يوسع رقعة مملكته حتى شملت الحوض الممتد بين نهري الدويرة والتاجه وأنشأ به عدداً كبيراً من الأديرة والكنائس، وأسكن هذه الأراضي الجديدة المستعربين من نصارى الإسبان الذين قدموا عليه من أرجاء الأندلس وتوفي عبد الله سنة ٣٠٠ للهجرة.

وكان لابن الأندلس من حاكم قوى حازم يعيد إليها وحدتها، ويبدو أن الأمير عبد الله شعر بذلك في عمق مما جعله يعد للأمر عدته برعايته لحفيد له صنعه على يديه هو عبد الرحمن، اتخذها ولياً لعهد، وكان يملك قلبه وقلوب الحاشية والرعية والجنود، وكان شاباً له اثنتان وعشرون سنة، وهاله ما رأى في الأندلس من كثرة الثورات، وفي مقدمتها ثورة عمر بن حفصون ومن قادهم من المولدين والمسالمة والعجم، فقاد إليه جيشاً في أول سنة من سني حكمه، واستولى في طريقه إلى مركز ثورته في بيشتر بالقرب من مالقة على سبعين حصناً، وأعاد الكرة إليه في السنة التالية وردّ إلى طاعته إشبيلية وشذونة ومالقة. ولم يجد ابن حفصون مفراً في السنة الثالثة من إعلان طاعته والانقياد إليه، وتوفي سنة ٣٠٥ وتبين أنه كان قد تنصر إذ دُفن في كنيسة بيشتر، وثار أبناؤه على عبد الرحمن وقضى على ثوراتهم نهائياً سنة ٣١٤ وحوّل كنيسة البلدة إلى مسجد، واستخرج منها جثة ابن حفصون وصلبه بقرطبة، وعاد جنوب البلاد جميعه إلى طاعته. واتجه عبد الرحمن بعد ذلك إلى غربي الأندلس وعبد الرحمن بن مروان الجليقي، ولم تكد تدخل سنة ٣١٨ حتى كان الغرب كله قد استسلم، واستسلمت طليطلة وجميع البلدان في إقليمها. وبذلك محا عبد الرحمن فكرة الثورة في الأندلس وعاشت في أمن ورخاء. وأخذ منذ السنوات الأولى من حكمه يفرض

هيئته على من جاوره من المسيحيين الإسبان في الشمال وأذعنت له بالولاء مملكتنا الجلالقة والقشتاليين واتخذتا منه الحكم المطاع فيما ينشأ بينهما من خلاف، وفرع إلى سُدته ملوكهما وأمرأوها يلتمسون رضاه، وطار صيته في أوروبا، فوفدت منها سفارات كثيرة محملة بالهدايا: من إمبراطور بيزنطة والبابا في روما وإمبراطور المملكة الجرمانية وهيو ملك الفرنجة وكونت برشلونة وماركيز توسكانيا وماركيز بروفنسا: قلدو الذي أصبح - فيما بعد - ملكا على إيطاليا. وكانت تعقد لهذه السفارات في قصره حفلات فخمة^(١). وكانت الدولة الفاطمية قد قامت في القيروان قبيل حكمه بقليل وقضت على الدولة الرستمية في المغرب الأوسط فأخذ يرسل المال والسلاح للأدارسة في المغرب الأقصى حتى يستطيعوا الوقوف في وجه الفاطميين واستولى على طنجة وسبتة، ورأى بناقب فكره وقد أعلن عبيد الله المهدي الخلافة الفاطمية في القيروان ولم يعد للعباسيين وجود في المغرب أن يبادر إلى إعلان نفسه خليفة للمسلمين في أواخر سنة ٣١٦ وتلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر. وبذلك فصل الأندلس عن العالم العربي بعد أن ظلت طويلا تخضع لسultan العباسيين الروحي قبله، إذ رأى هذا السلطان يتقلص في إفريقيا، وبذلك تكاملت للأندلس شخصيتها السياسية، وأصدر في ذلك منشورا قرىء على الناس في مساجد الأندلس، وفيه أعلن تمسكه بنصرة أهل السنة والجماعة، مع استنكاره الشديد لعقيدة ابن مسرة المتوفى سنة ٣١٩ أى بعد منشوره بنحو سنتين، وكان قد مزج في عقيدته بين مبادئ المعتزلة والمتفلسفة والصوفية.

وبلغ من احتفاء الناصر بأبيه الملك أن بنى لنفسه وحواشيه وجنده مدينة الزهراء على سفح جبل العروس المطل على قرطبة. وتأنق غاية التأنق في قصره بها وأبهائه، ولم ينشأ له ولد إلا بنى له فيها قصرا مقرونا ببستان واختار له بعض الكفاة للقيام بشئونه وبعض المعلمين لتربيته وتعليمه. وعنى بالمسجد الجامع في قرطبة، فأضاف إليه في اتجاه الجنوب زيادة ضاعفت حجمه. وعنى بعمده وزخرفته وأقواسه وأقام به محرابا بديعا. ومن إنشاءاته الضخمة بناؤه مدينة سالم في الثغر الأوسط بمواجهة مملكتي نبارة والجلالقة في الشمال لتكون مركزا للجيش المجاهدة هناك. وبنى أيضا مدينة المريّة على البحر المتوسط لتكون قاعدة لأسطوله. وبعده عهده أعظم عهد مرّ بالأندلس، بما أتاح لها من الاستقرار

(١) انظر في ذلك تاريخ ابن خلدون ١٣٧/٤، و٢٧٢/٢ وما بعدها.

١٤٢ وما بعدها، وأزهار الرياض ٢٥٨/٢

والوحدة والمنزلة العليا بين الدول الغربية والعربية، وأعانتته على ذلك حنكته في السياسة وتدبير الحكم وخبرته الدقيقة في اصطفاء الرجال واختيار القواد، كما أعانه خلق إسلامي عربي كريم من التسامح والعمق عند المقدرة والوفاء بالعهد لكل من استسلم من الثوار مع حسن المعاملة. وطالت مدة حكمه إلى سنة ٣٥٠ إذ استغرقت خمسين سنة وستة أشهر وثلاثة أيام، ويقال إنه عدّد أيام السرور التي صَفَّتْ له في هذه المدة الطويلة من حكمه، فكانت أربعة عشر يوماً.

وخلفه بعهد منه ابنه الحكم المستنصر وكان في السابعة والأربعين من عمره، وظلت الأندلس في عهده موحدة وظلت للخلافة الأموية هناك هيبتها في الداخل والخارج، وأخذت سفارات^(١) ممالك النصرى في الشمال وممالك أوروبا تغد على قرطبة. وحاول البشكنس في بنبلونة والجلالقة في ليون الإغارة على بلاده فأوغلت جيوشه سنة ٣٥٢ في أراضيها، وأرغمتها على العودة إلى إعلان ولائها لقرطبة. وتابع سياسة أبيه في إمداد الأدارسة بالمغرب الأقصى بالمال والسلاح، وأمدهم بالجنود ضد الفاطميين. وفي عهده عاد النورمان إلى الإغارة على شواطئ الأندلس الغربية في المحيط والشرقية في البحر المتوسط ونكل بهم الأسطول غرباً وشرقاً. وكان قد تعهده العلماء في شبابه فشُغف بالعلوم على اختلاف ألوانها واستحال جامع قرطبة لعهدده إلى جامعة كبرى، وعُنِيَ عناية واسعة بمكتبته ومكتبة القصر. وكان أبوه توفي قبل إتمامه للزيادة في الجامع فأتتها. ووقع في خطأ كبير إذ أوصى بالحكم من بعده لابنه هشام الملقب بالمؤيد وكان لا يزال طفلاً صغيراً في الثانية عشرة من عمره حين وفاته سنة ٣٦٦ وبذلك عرَّض الدولة لحكم الحُجَّاب الأوصياء وبالتالي لزلزلة لا بد أن تنزل بها سريعاً.

وقام بأمر المؤيد في أول خلافته جعفر المصحفي حاجب أبيه، وأشركت معه فيها «صبح» أمه محمد بن أبي عامر المعافري صاحب خطة الشرطة والسكة بقرطبة وكان قد ازدلف إليها في عهد الحكم بحسن الخدمة والقيام بمواقع الإرادة، وأخذ يُعدُّ سريعاً لتفردده بالحجابة، فأغرى المصحفي بالصقالبة وأخذ ما في أيديهم من الأموال العظيمة، واستعان بالبطل غالب صاحب مدينة سالم على جعفر فسجنه حتى هلك في سجنه، ثم بجعفر بن على الأندلسي أمير الزاب بالمغرب الأوسط على غالب ثم بعبد الرحمن بن هاشم التجيبى على جعفر، ثم فتك بعبد الرحمن، وخلصت له الحجابة، وكان المؤيد متخلفاً شديد

(١) راجع تاريخ ابن خلدون ١٤٥/٤ وما بعدها

وأزهار الرياض ٣٨٨/٢ وما بعدها.

التخلف إلى حد البله، فانفرد بالسلطان المطلق في الحكم، ونقل الأموال المخترنة في قصر الخلافة إلى داره. وذكر ابن حزم في رسالته نقط العروس أنه فكر في عزل الخليفة هشام وتنصيب نفسه خليفة، واستشار نقرأ من الفقهاء فاختلّفوا بين مؤيدين ومعارضين، فرجع عن ذلك واكتفى بلقبه المنصور. وكان له مجلس معروف في أحد أيام الأسبوع يجتمع فيه إلى أهل العلم. ورأى أن يتخذ لنفسه جيشاً من البربر، فاستقدم منهم ألفاً أعانوه في غزواته الكثيرة ضد البشكنس أصحاب نبارّه والجلالقة أصحاب ليون، ويقال إن غزواته أربت على عشرين غزوة وقيل بل على خمسين، واستولى في إحداها سنة ٣٧٧ على برشلونة.

وقد أخطأ ابن أبي عامر في تكوينه الجيش البربري الذي أنزله في قرطبة إذ سيكون له - فيما بعد - أثر سيء في فتنها التي طالت سنين متعاقبة انتهت بالقضاء على الدولة الأموية. ودامت دولة ابن أبي عامر ستاً وعشرين سنة إذ توفي سنة ٣٩٢ بمدينة سالم في الثغر الأوسط للبلاد. وتولى الحجابة بعده هشام المؤيد ابنه عبد الملك الملقب بالمظفر، ونوّه ابن حيان بحسن ضبطه للأندلس وأن الناس سكنوا منه إلى عفة ونزاهة فأخذوا في المكاسب والرفاهية وارتفعت نفائس الأعلّاق والتحف الثمينة، ورام صهره ابن القطاع الاستيلاء على أزمّة الدولة ففطن له وقتله. وسار بسيرة أبيه في الجهاد وكثرة الغزو للجلالقة والبشكنس واحتل بنبلونة عاصمة الأخيرين سنة ٣٩٧ وتوفي في غزوة كبيرة له سنة ٣٩٩. وخلفه في الحجابة أخوه عبد الرحمن الملقب بالناصر وكان نحساً على نفسه وعلى المؤيد هشام وعلى أهل الأندلس، إذ انفتح منه - كما يقول ابن سعيد - باب الفتنة العظمى وفسد الناموس، لما اتهمك فيه شراباً وزندقة وطعنا في الدين الحنيف قولاً وفعلاً، وطلب من هشام أن يوليه العهد بعده ففعل، وخرج لحرب المسيحيين في الشمال، فثارت عليه الأسرة الأموية، وكان في طليطلة، فرجع إلى قرطبة ليتدارك الأمر فقتلاه جند سفكوا دمه في جمادى الأولى سنة ٣٩٩. وبذلك انتهت دولة بني عامر.

واتفق بنو أمية على خلع هشام المؤيد ومبايعة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر وتلقيبه بالمهدى، وكان طائشاً: فرأى - بغير رويّة - مناصبة جند العامرين من البربر العدا، فاجتمع بهم بظاهر قرطبة سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، فبايعوه في ربيع الأول سنة ٤٠٠ للهجرة ولقبوه بالمستعين، ونهضوا به إلى طليطلة وهناك استنصر بالجلالقة فنصروه، وكان ذلك أول إسفين دقّ في ضياع

الأندلس، وحاصر البربر وجموع الجلالقة قرطبة وبرز إليهم المهدي في كافة أهلها، وهُزم مع أنصاره هزيمة ساحقة، فرَّ على إثرها إلى طليطلة، فاستعان بالجلالقة - مثل المستعين - فأعانوه، ودخل قرطبة، غير أن أهل القصر قتلوه وأعادوا هشامًا إلى خلافته، وحجبه واضح الصقلي، وحاصر البربر مع المستعين قرطبة وأرسل إلى الجلالقة ليمدوه، وبعث إليهم هشام وحاجبه واضح بالتنازل لهم عن ثغور قشتالة التي استولى عليها المنصور بن أبي عامر، فلم يلبوا المستعين. واستطاع البربر اقتحام قرطبة سنة ٤٠٣ وفتكوا بهشام المؤيد، وعاد للمستعين صولجان الحكم.

وكان من قواد البربر على بن حمود وأخوه القاسم وهما من أسرة الأدارسة العلوية، وعقد المستعين لعلى بن حمود على طنجة وعملها وللقاسم على الجزيرة الخضراء، وظل في الحكم طوال خلافته ست سنوات وعشرة أشهر كانت كلها شدةً مشثومات، ويكفي دولته ذلاًّ وذمًا أن أنشأها وثبَّتْها الجلالقة حتى سنة ٤٠٧ إذ يهاجم على بن حمود قرطبة ويستولى على أداة الحكم ويقتل المستعين. وكان واضح الصقلي قد فر إلى شاطبة وفر كثير من الصقالبة بزعامه خيران إلى المريّة ومُرسية ونزلت جماعة منهم دانية، ولم يلبث غلمان على بن حمود أن قتلوه سنة ٤٠٨ فخلفه أخوه القاسم وتلقب بالمأمون، ونازعه في سنة ٤١٢ يحيى ابن أخيه على وكان والياً لسبته واستولى على قرطبة وتلقب بالمعتلى وفرَّ المأمون إلى إشبيلية وعاد ببعض البربر إلى قرطبة ولحق المعتلى بالقة واستولى على الجزيرة الخضراء. وثار على المأمون أهل قرطبة وبايعوا عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار سنة ٤١٤ وقرب البربر منه فوثب عليه العامة بعد ٤٧ يوماً من حكمه، وبايعوا محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر وتلقب المستكفي بالله ويقال إنه لم يجلس على كرسي الخلافة أيام الفتنة أسقط منه ولا أنقص إذ كان أسير الشهوة عاهر الخلوة. وفي أيامه استوصلت بقية قصور جده الناصر في الزهراء، ولم يلبث يحيى بن على بن حمود أن تحرك سنة ٤١٦ للاستيلاء على قرطبة. فهرب المستكفي ومات ببعض الثغور واستولى يحيى على مقاليد الأمور، وثار عليه أهل قرطبة سنة ٤١٧ وبايعوا هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الجبار وظل يتردد في الثغور ثلاثة أعوام، ثم سار إلى قرطبة وتلقب بالمعتدّ، وفي سنة ٤٢٢ خلعه أهلها، وبذلك انتهت الدولة الأموية في الأندلس.

أمراء الطوائف - المرابطون - الموحدون - بنو الأحراف في غرناطة (أ) أمراء الطوائف^(١)

تقوُّض الصرح الشامخ الذي شاده بالأندلس أمراء البيت الأموي وخلفاؤه، ونشأ عن ذلك تفكك الدولة واستقلال مدنها الكبرى بأعمالها وقيام النظام المسمى بنظام أمراء الطوائف أو ملوك الطوائف، وقد بدأ منذ زمن الفتنة (٣٩٩-٤٢٢ هـ) إذ أخذت العناصر المختلفة تقتسم تلك البلدان، فكان للصقالبة أكثر بلدان الشرق وللعرب والبربر بلدان الوسط والغرب والجنوب. وتنافست هذه البلدان تنافساً أدى إلى طور حضارى راق كما أدى إلى نهضة واسعة في الأدب والعلم. وفي الوقت نفسه أخذت تتحارب فيما بينها، بل أنهى من ذلك أن بعض أولئك الأمراء أدى الجزية صاغراً لمسيحيي الشمال مما قوَّى في نفوسهم فكرة استرداد الأندلس من العرب المسلمين. ونقف قليلاً عند أهم المدن التي تكوَّنت فيها هذه الإمارات.

وأول مدينة نقف عندها قرطبة وقد اجتمع الملاء فيها أو كبار رجالاتها ووقع اختيارهم على أبي الحزم جهور ليكون أميناً على حكمها، وبذلك تأسس فيها نظام جمهوريٍّ ارستقراطي يرأس الحكم فيه أبو الحزم جهور، ويساعده مستشارون يأخذ بمشورتهم في المسائل المهمة، وخلفه في الحكم سنة ٤٣٥ ابنه أبو الوليد محمد باتفاق الملاء، وفوض

أمراء غرناطة (طبع دار المعارف) ودول الطوائف لمحمد عبد الله عنان (طبع القاهرة) والصقالبة للعبادي (طبع مدريد) والإسلام في المغرب والأندلس لبروفنسال (ترجم إلى العربية) طبع القاهرة والتاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحجى ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس وتاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس لعبد العزيز سالم والعبادي (طبع بيروت).

(١) انظر في هؤلاء الأمراء الذخيرة لابن بسام والمغرب لابن سعيد في بلدانهم والجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون والحلة السيرة لابن الأبار في تراجمها، وكذلك التكملة، والجزء الثاني والثالث من البيان المغرب (طبع باريس) والثاني من أعمال الأعلام (طبع بيروت) وكذلك الرابع بتحقيق د. إحسان عباس (طبع بيروت) ونفع الطيب للمقرى (بتحقيق إحسان) في مواضع مختلفة والتبيان: مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين آخر

التدبير إلى ابنه عبد الملك، فأساء السيرة وحاصره المأمون بن ذى النون، فاستغاث بالمعتمد بن عباد أمير إشبيلية، فوجه إليه ابنه الظافر سنة ٤٦٢ في عسكر كثيف ففك ابن ذى النون حصاره، وغدر الظافر بعبد الملك فخلع بنى جهور عن قرطبة ونفاه مع أبيه إلى شلطيش في الجنوب الغربي للأندلس، واغتال حريز بن عكاشة الظافر ليلاً، فأقبل المعتمد بجنوده وهرب ابن عكاشة ولحقته خيل فقتلته، ودخل المعتمد قرطبة وولى عليها ابنه المأمون فظل يدير شئونها إلى أن قتله المرابطون سنة ٤٨٤ للهجرة.

وتعدُّ إمارة إشبيلية أهم إمارات الطوائف لما قادت من حركة أدبية وعلمية كبرى ولما صار إليها من بلدان كثيرة في شرقي الأندلس وغربها، وأول من جمع زمام الحكم بيده بها قاضيا محمد بن إسماعيل اللخمي منذ سنة ٤١٤ إلى أن توفي سنة ٤٣٣ وخلفه ابنه عباد الملقب بالمعتضد وكان جباراً سفاكاً للدماء وأحاط نفسه بكوكبة كبيرة من الشعراء واتسع بسلطانه على حساب جيرانه من العرب والبربر بينما كان يرهب المسيحيين في الشمال رهبة شديدة حتى ليدفع لهم الجزية صاغراً، وبذلك كان معولاً كبيراً لهدم الإسلام والعروبة في الأندلس. وتوفي سنة ٤٦١ فخلفه ابنه المعتمد وفي عهده بلغت الإمارة الذروة في السلطان إذ دان له كثير من البلدان في غربي الأندلس مثل قرمونة وشريش وشلب وفي شرقيها مثل مالقة ومرسية، وظل مثل أبيه يدفع الجزية صاغراً لملك ليون وقشتالة، وكان شاعراً واجتمع له من الشعراء ما لم يجتمع لأى حاكم أندلسي، وكان مولعاً بالشراب ومجالس الغناء، وعزله يوسف بن تاشفين في عبوره سنة ٤٨٤ ونفاه إلى أغات في المغرب، وبها توفي سنة ٤٨٨ للهجرة.

وقامت في الجنوب إمارة ثالثة هي إمارة غرناطة تملكها صنهاجة وأول أمرائهم بها زاوى بن زيرى الذى اشتهر بهزيمته لخيران أمير المرية حين بايع المرتضى المروانى بالخلافة وزحف به على غرناطة. وخاف الكرة عليه من أهل الأندلس فرحل بما حازه من الأموال والذخائر إلى موطنه في المغرب، وخلفه بغرناطة ابن أخيه حبوس بن ماكسن (٤١٠ - ٤٢٩ هـ) وورثه ابنه باديس (٤٢٩ - ٤٦٥ هـ) وكان من أبطال الحروب وعظم سلطانه بهزيمته لزهير صاحب المرية وقتله سنة ٤٢٩ هـ وخلفه حفيده عبد الله بن بلقين، وظل على غرناطة، إلى أن سلمها ليوسف بن تاشفين سنة ٤٨٤ للهجرة.

وقامت في الثغر الأعلى إمارة سرقسطة، ثار بها منذر بن يحيى التجيبى ممدوح ابن درّاج، وتوفي سنة ٤١٤ فخلفه عليها ابنه المظفر يحيى وبعده ابنه منذر، وكان له ابن عم متهور كثير الحسد له فدخل عليه قصره وقتله، فانتهاز الفرصة واليه على لاردة - وقيل

على تطيلة - سليمان بن أحمد بن هود وانقضَّ على سرقسطة سنة ٤٣١، فهرب القاتل وخلصت له ولعقبه، ووليها بعده ابنه المقتدر أحمد وهو عميد بنى هود وكان فارساً مغواراً وله غزوات مشهورة للمسيحيين في الشمال، وكان شاعراً وممدِّحاً للشعراء. وجمع ألفونس السادس ملك ليون وقشتالة جيشاً ضخماً للاستيلاء على سرقسطة وباءت حملته بالإخفاق الذريع فأعاد الكرة سنة ٤٥٦ وفاجأ النورمانديون بلدة بربشتر على مسافة ٦٠ كيلو متراً في الشمال الشرقي من سرقسطة واقتحموها وأنزلوا بأهلها مذبحاً بشعة وسبوا منها خمسة آلاف من النساء والعذارى وباعوهن في الأسواق بيع الإماء، وبارك البابا إسكندر هذا العمل الوحشي الفظيع. واستعاد المقتدر البلدة حين استدار العام ومزَّق المعتدين شر ممزق، ودانت له وشقة في الشمال الغربي من بربشتر وطُرطوشة في الجنوب الشرقي من سرقسطة، وأخرج إقبال الدولة بن مجاهد من دانية على البحر المتوسط وأدخلها في إمارته، وتوفي سنة ٤٧٤ وخلفه ابنه المؤمن يوسف وكان شجاعاً باسلاً وحامياً للعلماء والشعراء وتوفي سنة ٤٧٨ فولى بعده ابنه المستعين أحمد، وحين استولى يوسف بن تاشفين على ديار أمراء الطوائف رأى أن يتركه حاجزاً بينه وبين المسيحيين في الشمال، وتوفي شهيداً في حروبه معهم سنة ٥٠٣ وخلفه ابنه عماد الدولة عبد الملك، وحاول على بن يوسف بن ناشفين أخذ الإمارة منه، فاستعان بالنصارى وتملكها المرابطون حتى سنة ٥١٢ إذ حاصرها النصارى واستولوا عليها وأخذوا في تملك بلاد الثغر الشبالي الأعلى إلى أن ملكوها جميعاً.

ومن الإمارات المهمة في مَوْسَطَة الأندلس إمارة طَلَيْطَلَة ثار فيها زمن الفتنة في أواخر الدولة الأموية قاضياً ابن يعيش، وتوفي سنة ٤١٩ فتملكها إسماعيل بن ذى النون وأسرته البربرية طوال حقبة أمراء الطوائف، وتوفي سنة ٤٢٩ فخلفه فيها ابنه المأمون يحيى، وهو أعظم أمرائها قدراً، اجتمع عنده جَلَّة من الشعراء والكتاب، وعنى ببناء قَصْر له تأتق فيه غاية التأتق مما جعل الأديباء والشعراء يطنبون في وصفه، وتوفي سنة ٤٦٧ وخلفه حفيده القادر يحيى وكان قصير النظر سيء التدبير، وفقر ألفونس السادس فاه على ثغوره وجعل يطويها - كما يقول ابن سعيد - طى السجل للكتاب، فثار عليه أهل طليطلة وهرب إلى بعض حصونه وتملكها المتوكل بن الأقطس صاحب بطليوس لمدة عشرة أشهر، واستردها القادر بمعونة ألفونس السادس، وأسلمها له سنة ٤٧٨ على أن يساعده في أخذ بلنسية، فأخذها لمدة عامين إلى أن قتل سنة ٤٨١. وكان قد تملكها زمن الفتنة صقليين هما مبارك ومظفر وصارت لحفيد للمنصور بن أبي عامر يسمى عبدالعزيز

سنة ٤١٧ وظل يدبر شئونها حتى سنة ٤٥٢ ووليها بعده ابنه المظفر عبد الملك، واستولى عليها القادر وثار عليه قاضيها ابن جحّاف، وأخذ فارس نصراني يغير عليها هو السيد القنبيطور واستسلمت له سنة ٤٨٧ فنكل بأهلها وذبح الآلاف منهم وأحرق قاضيها حيًّا، ومات سنة ٤٩٢ واستولى عليها المرابطون سنة ٤٩٥.

ومن إمارات الشرق المهمة - بجانب إمارة بلنسية - إمارة دانية تملكها أول الأمر في مدة أمراء الطوائف مجاهد الصقلي منذ سنة ٤٠٥ إلى سنة ٤٣٦ وكان محبا للعلماء مجزلا العطاء لهم وللشعراء، وكان قد تملك مع دانية جزر البليار، وخلفه ابنه على الملقب بإقبال الدولة ومنه تسلم دانية المقندر صاحب سرقسطة سنة ٤٦٨ وخلفه على ميورقة مولاه أغلب وتولاها بعده مبشر الصقلي وآلت إلى المرابطين.

ومن الإمارات المهمة في الشرق مُرْسِيَّة، وهي - كما أسلفنا - من بنيان عبد الرحمن الأوسط، وثار بها في زمن أمراء الطوائف المرتضى الرواني وبايعة الصقالبة الذين تغلبوا على الشرق وذهبوا به إلى غرناطة، فهزّمهم زاوى بن زبرى وقتل المرتضى في المعركة، وخلفه على مرسية أبو عبدالرحمن بن طاهر، وثار عليه أهلها وراسلوا المعتمد بن عباد فأرسل إليهم وزيره ابن عمار الشاعر فأخذها من يده وثار بها لنفسه، وثار عليه القائد عبد الرحمن بن رشيق، وملكها أبو الحسن بن اليسع باسم المعتمد بن عباد ثم صارت للمرابطين. ومن إمارات الشرق أيضا المرية وهي من بنيان الناصر على البحر المتوسط وقد تملكها الصقالبة ثم معن بن صادح إلى أن توفي سنة ٤٤٣ وورثها ابنه المعتمصم، وكان شاعرا وكريما جزل العطاء للشعراء، توفي سنة ٤٨٤ وجيش المرابطين يحاصره.

ومن إمارات الغرب المهمة إمارة بطليوس، تملكها زمن أمراء الطوائف الأفضس عبد الله حتى سنة ٤٣٠ فورثها عنه ابنه المظفر وهو من أعلم أمراء الطوائف وأديهم، وخلفه عليها ابنه المتوكل سنة ٤٦٠ ويؤثر له أنه انتدب أبا الوليد الباجي كبير فقهاء الأندلس في زمنه ليدعو أمراء الطوائف إلى توحيد كلمتهم ضد نصارى الشمال، غير أن دعوته - بسبب أطماعهم - ذهبت أدراج الرياح، ومن يد المتوكل أخذ المرابطون هذه الإمارة وما كان يتبعها من المدن مثل أشبونة.

(ب) المرابطون^(١)

رأينا ألفونس السادس ملك ليون وقشتالة يغير على ثغور طليطلة وما يلبث أن يستولى عليها سنة ٤٧٨ وهى نتيجة طبيعية لتفتت الأندلس وتوزعها بين أندلسات أو إمارات تتناحر وتتحارب بينما تؤدي الإتاوات لألفونس السادس وأمراء أراجون ونبارة وبرشلونة، تؤديها إشبيلية وبطليوس وغيرها. وأحسَّ أمراء الأندلس وفي مقدمتهم المعتمد أمير إشبيلية والمتوكل أمير بطليوس أن ما أصاب طليطلة أصبح قاب قوسين أو أدنى إلى إصابة إماراتهم، فتقع فريسة لألفونس السادس ملك ليون وقشتالة أو لغيره من الأمراء المسيحيين في الشمال، وأجمعوا أمرهم على أن يستغيثوا بيوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين في المغرب، وأرسلوا إليه نفرا من قضاة مدنهم الكبرى يستنفرونه - واستنفره كثير من الفقهاء - للوقوف معهم في وجه أعدائهم الشماليين من المسيحيين، وكان المرابطون قد نذروا أنفسهم للجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام بالصحراء الكبرى والسنغال. واستمع يوسف إلى القضاة، وهاله الأمر، فجهز سريعا جيشا جرارا وأعد له أسطولا عبر به في سنة ٤٧٩ الزقاق، واتجه إلى إشبيلية، وانضم إليه المعتمد صاحبها تواء، وبالمثل عبد الله بن بلقين أمير غرناطة والمتوكل أمير بطليوس، وعلم ألفونس بمقدمه فاستغاث بملوك النصارى في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا وجاءته سيول من الفرسان، والتقى الجمعان في الزلاقة بالقرب من بطليوس، ودارت معركة حامية الوطيس سُحق فيها جيش ألفونس، وفرَّ على وجهه مع الفارين. وتصادف أن توفي ابن ليوسف بن تاشفين فعاد إلى المغرب بعد هذا النصر المبين ولو تابع تقدمه لاستردَّ طليطلة، وكأنه اكتفى بتقليم أطراف العدو، وسرعان ما عاد ألفونس للإغارة على شرقي الأندلس، وعلم بذلك ابن تاشفين، فجاز إلى الأندلس جوازه الثاني سنة ٤٨١ وكاد ينزل بألفونس ما أنزله به في الزلاقة،

للناصرى وتاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس لعبد العزيز سام والعبادى (طبع بيروت) وعصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس لمحمد عبد الله عنان (طبع القاهرة) والتاريخ الأندلسى لعبد الرحمن الحجى (طبع دار القلم) ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس والإسلام في المغرب والأندلس لبروقنسال بمراجعة د. لطفى عبد البديع (نشر مكتبة النهضة المصرية).

(١) انظر في المرابطين: الجزء الثالث من البيان المغرب (طبع باريس) والرابع (طبع بيروت بتحقيق إحسان عباس) والثالث من أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع الدار البيضاء بالمغرب) ونفع الطيب للمقرى وتاريخ ابن خلدون والحلة السيرة والتكملة لابن الأبار والمعجب للمراكشى ونظم الجمان لابن القطان (تحقيق د. مكى - طبع الرباط) والاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى

غير أن الشتاء دخل فعاد إلى المغرب بعد أن ترك في الأندلس حامية. وسرعان ما دبّ الشقاق بين أمراء الطوائف فجاز يوسف إلى الأندلس مرة ثالثة سنة ٨٤٣ مصمماً - بمشورة الفقهاء الأندلسيين - على إنهاء حكم هؤلاء الأمراء، واستسلم له سريعاً أمير غرناطة، واضطر إلى العودة إلى المغرب وترك لصهره سير بن أبي بكر تنفيذ الخطة، فاستنزهم جميعاً ومن أبي أخذه أسيراً مثل المعتمد بن عباد الذي نُفي إلى أغات بالمغرب، أو قتله بعد حصاره مثل المتوكل صاحب بطليوس. وبذلك أظل حكم ابن تاشفين الأندلس ما عدا سرقسطة، فإنه تركها لبني هود لتكون حاجزاً بين الأندلس ونصارى الشمال، وعبر إلى الأندلس مرة رابعة سنة ٤٩٠ لأخذ البيعة لابنه علي وتوفي سنة ٥٠٠ للهجرة.

وتولى علي ابنه الحكم بعده فحاول الاقتداء بأبيه في الجهاد فعبر إلى الأندلس سنة ٥٠١ ووجه أخاه تيمبا بجيش إلى أقليم شرقى طليطلة، والتقى بألفونس وأوقع به هزيمة ساحقة قُتل فيها ولي عهده - وكان ابنه الوحيد - فتوفي متأثراً بفقده، واستولى تيم على أقليم وسَنْتَبْرِيَّة. وفي سنة ٥٠٣ غزا جيش المرابطين أراضى طليطلة واستولى على طَلْبِيْرَة غربيها، واستعاد المرابطون جزائر البليار سنة ٥٠٩. وكان علي بن يوسف قصير النظر فحاول أخذ سرقسطة من بني هود، واستولى عليها كما مر بنا، وسرعان ما أخذها منه النصارى سنة ٥١٢. واشتبك المرابطون سنة ٥١٤ مع ألفونس الأول ملك أراجون في معركة بكتندة ولم يكتب لهم النصر. وفي سنة ٥١٩ استدعى المعاهدون من نصارى غرناطة ألفونس الأول للاستيلاء على بلدهم فاندفع إلى الجنوب، وردّه المرابطون على أعقابها، وأجلّوا عن غرناطة من كانوا سبباً في استدعائه من النصارى إلى سلا ومكناسة بمراكش. وفي سنة ٥٢٨ وجه علي بن يوسف جيشاً بقيادة يحيى بن غانية وإلى بلنسية ومرسية إلى إفراغة شرقى سرقسطة، ولقى جيشاً لألفونس ملك أراجون فمزقه شرّ ممزق. وتوفي علي بن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين سنة ٥٣٧ وخلفه ابنه تاشفين وكان ضعيفاً مما آذن بنهاية تلك الدولة.

وقد حمل كثير من المستشرقين في مقدمتهم دوزي وبروفنسال على تلك الدولة زاعمين أنها كانت دولة بدو جفاة لا عهد لهم بالحضارة، وفاتهم أن أهل المغرب اعتنقوا الدين الحنيف من قديم وأخذوا بقسط من حضارته الإسلامية وكل ما اتصل بها من علوم وآداب، فليس بصحيح أنهم كانوا بدوا جفاة وقد فتح سلاطينهم أبوابهم في مراكش للعلماء والشعراء الأندلسيين واختاروا لرياسة دواوينهم في حاضرتهم أبا بكر بن القصيرة كبير

كتاب الإمارة العبّادية بإشبيلية، حتى إذا توفي سنة ٥٠٧ خلفه زميل له من كتاب تلك الدولة هو أبو القاسم بن الجند، وتوفي سنة ٥١٥ فخلفه الكاتب الأندلسي البارع ابن أبي الخصال، وكان يساعد الثلاثة جميعا كتاب من الأندلس. وقد ازدهرت في عهد المرابطين العلوم اللغوية وعلوم الدراسات الإسلامية وكذلك الدراسات الفلسفية ولمع فيها فيلسوف كبير هو ابن باجة. وشجّع حكام المرابطين في الأندلس الحركتين العلمية والأدبية وفتحوا أبوابهم على مصاريعها للشعراء، على نحو ما يوضح ذلك ديوان ابن خفاجة ومدائحه فيه لإبراهيم بن يوسف بن تاشفين الذي ألف الفتح بن خاقان باسمه كتابه قلائد العقيان، وكذلك مدائحه لأخيه تميم حاكم غرناطة ثم إشبيلية والأندلس ولأخيها سلطان المرابطين: علي ولابن تيفلويت حاكم سرقسطة راعي ابن باجة والحركة الفلسفية ولأبي عبد الله محمد بن الحاج حاكم قرطبة وابنه أبي بكر. وتبرز من نسائهم راعيات للأدب مثل مريم زوجة تميم بن يوسف ممدوحة ابن خفاجة، وأهم منها السيدة حواء زوجة أهم قوادهم سير بن أبي بكر حاكم إشبيلية مددا متطاولة ممدوحة الأعمى التطيلي، وكانت لها ندوة في قصر الإمارة يحضرها كبار الشعراء والمتفلسفة، وتحاورهم في الشعر ونقده على نحو ما حدث فيما بعد بفرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر وظهور سيدات متأدبات فيها على غرارها، وكان لهن صالونات يتحاور فيها أدباء باريس الناهيون.

وحقا كان لفقهاء المالكية سطوة كبيرة في عصر المرابطين، وهي سطوة لا ترجع إلى المرابطين ذات أنفسهم، وإنما ترجع إلى أن هذا العصر أتى بعد عصر فساد في الحكم انتشر فيه اللهو، وأصبحت الأندلس أندلسات وإمارات كثيرة بل شرادم، والجيران والإخوان يتحاربون، والعدو فاغرّ فاه، يكاد يلتهمهم جميعا، مما جعل الفقهاء يستغيثون بالمرابطين وابن تاشفين كى ينقذوا الأندلس مما تحولت إليه من دار هو كبيرة ممزقة، واستنقذها المرابطون ومن ورائهم ومعهم الفقهاء يؤيدون ويساعدون، فكان طبيعيا أن يعظم شأنهم في هذا العصر بالقياس إلى عصر أمراء الطوائف عصر اللهو والفساد. وكان من أخطاء بعضهم أن أفتوا بأن الغزالي مجدد الإسلام المصلح يعد من المبتدعة، مما أدى إلى ظهور حركة دينية إصلاحية جديدة هي حركة الموحدين التي عجلت بسقوط دولة المرابطين. وفي هذه الأثناء انتهز نفر من رؤساء المدن في الأندلس الفرصة فاستقلوا بها، وكان أولهم ابن حمدين قاضى قرطبة وتبعه في بطليوس ابن قسى وفي المرية يوسف بن مخلوف ثم الرميمى وفي مرسية عبد الله بن عياض ثم صهره ابن مردنيش وتبعته بلنسية وطرطوشة

وجيان وظلت الجزر الشرقية مع بني غانية حتى سنة ٥٨٠ إذ صارت لدولة الموحدين.

(ج) الموحدون^(١)

أنشأ هذه الدولة ابن تومرت، وهو مصلح ديني مغربي زار المشرق وتلمذ على أساتذته من الأشعرية وغيرهم، وعاد إلى المغرب فنظم فيه ثورة واسعة ضد المرابطين وفقهائهم المالكية الذين كانوا يهتمون في دراسة الفقه بالفروع دون الأصول، وتبعه خلق كثيرون وجعلهم طبقات: الطبقة الأولى سهاها الجماعة، وسمى الطبقة الثانية باسم الموحدين وألف منهم جيشاً ضخماً واقع به المرابطين سنة ٥٢٤. وتوفي سريعاً فخلفه عبد المؤمن بن علي حتى وفاته سنة ٥٥٨ للهجرة، وهو يعد المؤسس الحقيقي للدولة، إذ استطاع القضاء نهائياً على دولة المرابطين، وتبعه المغرب من طرابلس إلى المحيط، وتم له ملك أكثر الأندلس منذ سنة ٥٤٠. وكان ابن الرنك صاحب قلمرية شمالي نهر تاجه بالقرب من المحيط قد استولى على أشبونة وشنترين وقصر أبي دانس، وهو يعد أول ملوك البرتغال بينما استولى ابن مردنيش على شرقي الأندلس وولى صهره إبراهيم بن همشك على جيان، فنازلها الموحدون وقضوا عليها في الستينيات، وكان النصارى قد استولوا على الميرية من يد ابن الرميمي فاستعادوها. وتوفي عبد المؤمن فخلفه ابنه يوسف، وكان مثقفاً ثقافة واسعة أتاحت له في أثناء ولايته لأبيه على الأندلس واتخاذه إشبيلية عاصمة له، وكان مثل أبيه وإمامه ابن تومرت ثائراً على كتب المذاهب الفقهية وما بها من كثرة الفروع والعلل والأقيسة ومعتقاً لمذهب أهل الظاهر، وعبر إلى الأندلس في سنة ٥٦٦ لجهاد النصارى، وأعاد عليهم الكرة في سنة ٥٨٠ وهي سنة وفاته وخلفه ابنه يعقوب، وكان متعصباً للمذهب الظاهري تعصباً شديداً، وفي السنة الثانية من حكمه توفي ابن الرنك ملك البرتغال واستولى ابنه شانجه على مدينة شلب، واستردها يعقوب في السنة التالية ومعها قصر أبي دانس في الجنوب الشرقي لأشبونة. وعبر إلى الأندلس سنة ٥٩١ في جيش

والتالث من الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للناصري وأعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع بيروت والمغرب) وعصر المرابطين والموحدين لمحمد عبد الله عنان والتاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحجى ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس والإسلام في المغرب والأندلس لبروفنسال بمراجعة د. لطفى عبد البديع.

(١) انظر في الموحدين بالأندلس الجزء الثاني والتالث من البيان المغرب (طبع باريس) ونفح الطيب وتاريخ ابن خلدون ١٦٥/٤ والمعجب للمراكشي (طبع القاهرة) وكتاب المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين لابن صاحب الصلاة وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشي (طبع تونس) والجزءين الثاني

جرار، وعلم به ألفونس الثامن ملك قشتالة فجمع له جموعاً كثيرة تزيد على مائتي ألف راجل وخمسة وعشرين ألف فارس، والتقى عند حصن الأرك في وسط الطريق بين قرطبة وطليلة، ومُنِيَ ألفونس وجيشه بهزيمة ماحقة وتنادوا الفرار الفرار، وفر ألفونس ناجياً بنفسه. وعاد يعقوب إلى إشبيلية مبتهجاً بكثرة الأسلاب والغنائم، وأصلح مسجدها وبنى منذته التي عرفت باسم الخيرالدا، وكان حريماً أن يتبع ألفونس إلى طليلة ويستولى عليها حتى يفيد الفائدة المرجوة من هذا النصر العظيم، غير أنه اكتفى بعقد معاهدة بينه وبين ألفونس بعدم الاعتداء لمدة عشر سنوات. وتوفي سنة ٥٩٥ وخلفه ابنه الناصر وكان ضعيفاً وشغلته ثورات مختلفة في المغرب كما شغله استيلاؤه على جزائر البليار من يد بني غانية، بينما كان ألفونس يعد العدة لمعركة فاصلة بينه وبين الموحدين وأعان ملوك النصارى في الشمال والبابا والأساقفة في جنوبي فرنسا واعدن مساعديه بالغفران وجاءه عبّاد الصليب من كل فجٍّ، والتقى سنة ٦٠٩ بالناصر وجيش الموحدين في حصن العقاب إلى الجنوب الشرقي من حصن الأرك، وهُزم الناصر وجيشه هزيمة مرة، ولم تُدر السنة حتى توفي وخلفه ابنه المستنصر حتى سنة ٦٢٠ وأخوه المأمون حتى سنة ٦٢٩ وفي أيامه أعلن استقلاله ابن أبي حفص واليه على تونس، وولى بعده ابنه الرشيد حتى سنة ٦٤٠ وفي عهده استقل بنوزيان بتلمسان (المغرب الأوسط) وخلفه ابنه السعيد وفي أيامه عظم شأن بني مرين في المغرب الأقصى واستولوا على فاس ومكناس وأيضاً على سلا والرباط على شاطئ المحيط ودخلوا مراكش سنة ٦٦٤ وبذلك انتهى عهد الموحدين.

ومنذ زمن المأمون الموحدى أخذ بعض الثائرين في الأندلس يعلنون استقلالهم، وفي مقدمتهم ابن هود الملقب بالمتوكل الثائر بمرسيه سنة ٦٢٥ ومَلَك قرطبة وإشبيلية وغرناطة فضلاً عن مالقة والمرية، ولقيه النصارى في ماردة شرقي بطليوس سنة ٦٢٦ فهزموه وأخذوها، واستولى صاحب برشلونة على جزائر البليار سنة ٦٢٧، ولم يلبث ملك قشتالة أن استولى على قرطبة جوهره الأندلس الكبرى سنة ٦٣٣ وقتل ابن هود وزيره ابن الرميمي غيلة في المرية، وثار زيان بن يوسف بن مردنيش ببلنسية سنة ٦٢٦ وأخذها منه ملك أراجون سنة ٦٣٥ وسقطت جزيرة شقر سنة ٦٣٩ ودانية سنة ٦٤١ وشاطبة سنة ٦٤٤ واستولى فرناند الثالث ملك قشتالة على إشبيلية عروس الأندلس سنة ٦٤٦. وآلت مرسية لعم المتوكل بن هود بفريضة للنصارى وخدمة، وثار عليه عزيز بن خطاب سنة ٦٣٥ وهُزم في وقعة مع النصارى فاستدعى أهل مرسية زيان بن يوسف بن مردنيش فدخلها وقتله سنة ٦٣٦ وعاد أهل مرسية فثاروا على ابن مردنيش وأخرجوه من بلدتهم،

فعادت لبني هود، وما زال فرناند الثالث ملك قشتالة يغاورها ويحاصرها حتى استولى عليها سنة ٦٦٤ للهجرة.

(د) بنو الأحمر^(١) في غرناطة

تنتمي هذه الأسرة إلى حفيد الصحابي الجليل سعد بن عبادة سيد الخزرج لعهد الرسول ﷺ وهو محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر والملقب بلقب الغالب بالله، وكان فارساً مقداماً، رأس في قرينته أرجونة شمالي جِيَان واستولى على جِيَان سنة ٦٢٩ من ابن هود ثم على بَسْطَة ووادي آش شمالي غرناطة، ثم على غرناطة نفسها سنة ٦٣٥ واتخذها عاصمة وامتدَّ سلطانه في الشرق إلى مالقة والمرية، غير أنه اضطر إلى التخلي عن جيان سنة ٦٤٣ لملك قشتالة، وعقد معه معاهدة التزم فيها بتقديم عون له في استيلائه على إشبيلية سنة ٦٤٦ واتسع بسلطانه شمالي مالقة والمرية حتى لورقة وجنوباً حتى جبل طارق والجزيرة الخضراء وحتى لبلبة وشريش وشذونة في الجنوب الغربي لغرناطة، ومكَّن له من تثبيت ملكه حنكته السياسية وطول مدة حكمه حتى سنة ٦٧١. وخلفه ابنه محمد الملقب بالفقيه، وسرعان ما هاجمه ألفونس العاشر ملك ليون فاستنجد بالمنصور عبد الحق سلطان المرينيين بالمغرب فأرسل إليه قوة كبيرة، والتقى الجمعان عند إستجة جنوبي قرطبة سنة ٦٧٤ وانتصر المسلمون انتصاراً عظيماً. واتفق محمد الفقيه سلطان غرناطة وسلطان بنو مرين على أن تقيم في مملكة غرناطة قوة مرينية يرأسها قائد مريني يسمى شيخ الغزاة يدخل في عداد كبار الشخصيات بغرناطة، واتفق على أن تكون مالقة قاعدة للقوات المرينية، وعبر المنصور المريني مراراً وظل يشترك مع القشتاليين حتى أذعنوا لمسألة محمد الفقيه، وتوفي سنة ٧٠١ وخلفه ابنه محمد المخلوع سنة ٧٠٨ وولى بعده أخوه نصر حتى سنة ٧١٣ إذ تنازل لابن عمه إسماعيل، والتقى بالقشتاليين سنة ٧١٨ ودارت عليهم الدوائر، وله فضل في إقامة بعض منشآت قصر الحمراء واغتيل سنة

الرباط) وتاريخ ابن خلدون: الجزء الرابع ونفح الطيب للمعري (انظر الفهرس) ويوسف الأول سلطان غرناطة لمحمد كمال شبانة (طبع القاهرة) ونهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين لمحمد عبد الله عنان (طبع القاهرة) والتاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحجى ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس.

(١) انظر في بنو الأحمر بغرناطة أو بنو نصر كتاب اللوحة البدرية في الدولة النصرية والإحاطة في أخبار غرناطة (في تراجم أمرائهم) وأعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب ونبذة العصر في أخبار ملوك بنو نصر لمجهول (طبع المغرب) والمغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ١٠٩/٢ والذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية لابن أبي زرع (طبع

٧٢٥ وخلفه ابنه أبو الحجاج يوسف الأول، وفي أيامه استولى القشتاليون على طريف المشرفة على جبل طارق، وحدث وباء كبير سنة ٧٤٩ ولابن خاتمة الشاعر رسالة في وصفه. واغتيل أبو الحجاج يوسف الأول سنة ٧٥٥ وخلفه ابنه محمد الخامس الغني بالله وله القسط الأوفر من منشآت قصور الحمراء، وتوفي سنة ٧٩٣ وكانت علاقته حسنة بملك القشتاليين وبالمثل علاقات ابنه يوسف وحفيديه محمد ويوسف المتوفى سنة ٨٢٠ وتلا يوسف أمراء ضعاف دب الخلاف بينهم وبين أبناء عموماتهم، ولم يلبث القشتاليون أن استولوا على جبل طارق سنة ٨٦٧ وبذلك أصبحت إمارة غرناطة محاصرة بالقوات النصرانية، بالإضافة إلى ما نشب من حروب بين أبناء الأسرة الحاكمة كانوا يستعينون فيها بملوك قشتالة. وأخذ ذلك ينذر بنهاية إمارة غرناطة وعجل بها زواج فرناند ملك أراجون من إيزابيلا ملكة قشتالة، فتعاونوا على القضاء على الإمارة، وقدما بقوات ضخمة استولوا بها على بعض المدن الصغرى، ثم حاصروا غرناطة آخر معقل للإسلام في الأندلس، واستسلم أبو عبد الله الصغير وسلم مفاتيح الحمراء لفرناند سنة ٨٩٧ للهجرة ونصت معاهدة التسليم على أن يحتفظ المسلمون في غرناطة والأندلس بكامل حقوقهم وبمساجدهم وإقامة شعائرهم الدينية، ولكن الأسبان ضربوا بكل ذلك عرض الحائط ومضوا يضطهدون المسلمين المتبقين أسوأ اضطهاد وسموهم المدجنين، بينما سماوا من تنصر منهم ظاهرا الموريسكيين وعقدوا لهم محاكم التفتيش المشهورة إلى أن أصدر الملك فيليب الرابع سنة ١١١٧ هـ / ١٦٠٩ م أمراً بخروجهم من إسبانيا. ومن الغريب أن هذا التعصب الديني المقيت الذي أخرج المسلمين من الأندلس هو الذي أتاح لأوروبا استكشاف أمريكا وطريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند فإن فردناند الذي ساعد أرسطو كولمب على اكتشاف أمريكا كان متأثراً - بعد استيلائه على غرناطة - بفكرة حصر الإسلام والمسلمين بين نارين، وتأثر بنفس الفكرة البرتغاليون في اكتشافهم لطريق الهند.

المجتمع^(١)

رأينا - فيما مر بنا - كيف كان التكوين البشري لسكان إيبيريا مزيجاً معقداً من عناصر جنسية كثيرة إذ نزلها قديماً قبائل من بلاد الغال في الشمال، ثم نزلتها عناصر فينيقية ويونانية وقرطاجنية ورومانية وجرمانية، ونزلها كثيرون من اليهود ثم نزلها مع الفتح العرب والبربر. وجلب إليها حكام الدولة الأموية كثيرين من الصقالبة المنتمين إلى شرقي أوروبا وفرنسا وألمانيا. ومن كل هذه العناصر تألف المجتمع الأندلسي مشتركةً في تكوينه القارات القديمة الثلاث: أوروبا وإفريقيا وآسيا. ودخل كثير من أهل إيبيريا في الإسلام وكانوا يُسمَّون: «مسالمة» وُسِّمَ أبناؤهم باسم المولدين، وظل كثيرون على مسيحيتهم مع اصطناعهم لحياة المسلمين وعاداتهم وتعلم العربية والتكلم بها وُسِّموا باسم المستعربين.

وأخذت تعمل عوامل في المزج السريع بين المسلمين والمسيحيين، منها كثرة المصاهرة فقد تزوج كثيرون في الجيش الفاتح من الإسبانيات. وظل ذلك فيما بعد، إذ كان كثيرون من العرب والبربر يؤثرون الإسبانيات الشقراوات، وكان البيت الأموي يكتظ بهن. ومن تلك العوامل أيضاً روح التسامح الديني الذي بثه الإسلام في أتباعه فكان أهل الذمة من النصارى واليهود يعاملون بالحسنى معاملة كريمة. ومرت بنا في غير هذا الموضوع فتنة دينية للعهد عبد الرحمن الأوسط أثارها بعض قساوسة النصارى ورهبانهم، وسرعان

ومقدمته وصفة الأندلس (من نزهة المشتاق) للإدرسي نشر دوزي ودي جويه (طبع ليدن) ونفع الطيب وكتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ١٨٥/٢ حيث ينقل التيفاشي عن ابن سعيد نصاً منها عن الموسيقى الأندلسية، وراجع تراث الإسلام: الجزء الأول طبعة القاهرة وانظر طبعته المتجددة في الكويت وبحنا قيا عن المجتمع القرطبي للدكتور الطاهر مكى في كتابه: «دراسات عن ابن حزم وكتابه طرق الحمامة» ص ١٥ وما بعدها وص ٢٤٧ وما بعدها.

(١) انظر في المجتمع الأندلسي مواضع مختلفة من المقتبس لابن حيان بأجزائه المنشورة والصلة لابن بشكوال والحلة السراء والتكملة لابن الأبار والذخيرة لابن بسام وكتاب أحكام السوق ليحيى بن عمر (طبع تونس) وكذلك نشرة صحيفة المعهد المصري بمريد: المجلد الرابع، والتبيان: مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين (طبع دار المعارف) ورسالة الحسبة لابن عبيدون وصورة الأرض لابن حوقل ونقط العروس في نوادر الأخبار لابن حزم نشر مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة العدد الثاني من المجلد الثالث عشر وتاريخ ابن خلدون

ما انتهت وحل محلها تعصب وطني استشره المسألة والمولدون والمسيحيون إذ داخلهم عصبية التعصب لوطنهم والشعور بأن العرب والبربر الأندلسيين غرباء أجنب، مما هيا لثورات عبد الرحمن بن الجليقي في بطليوس وعمر بن حفصون في بيشتر وكثيرين غيرهما، واستطاع عبد الرحمن الناصر القضاء على هذه الثورات واستعادة وحدة الأندلس. وتوقف قليلا بإزاء الحضارة والغناء والمرأة في الأندلس.

الحضارة

كانت حياة أهل إيبيريا قبل الفتح العربي أقرب إلى حياة البداوة، وظل المسيحيون في القسم الجبلي بالشمال يعيشون هذه الحياة لوعورة موطنهم، ولما تقوم عليه حياتهم من شظف وخشونة، وظل العرب والبربر وأهل الأندلس جميعاً يعيشون نفس هذه المعيشة المتبدية زمن الولاة، غير أنهم أخذوا في التحضر زمن الدولة الأموية لما ساد حياتهم من أمن واستقرار، وأخذوا يخطون في ذلك خطوات قوية منذ عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ). بسبب شغفه بحضارة العرب المادية في المشرق مما دفع تجار قرطبة إلى استيراد أدواتها ونفائسها، وفي ذلك يقول ابن سعيد في ترجمته بكتاب المغرب: «في أيامه دخل الأندلس نفيس الجهاز من ضروب الجلابب لكون ذلك نفق عليه وأحسن لجاليه، ووافق زمنه انتهاء الذخائر التي كانت في قصور بغداد عند خلع الأمين فجلبت إليه». وحاكاه أهل قرطبة والأندلس في العناية بالفرش والرياش وأدوات الزينة، ولم يلبث أن أنشأ بقرطبة دار طراز لصنع المنسوجات والملابس الأنيقة، وأخذت تنشأ هناك صناعة الحلى والحقاق والتحف والأواني والأثاث. وسرعان ما أخذ المجتمع القرطبي يتحضر في المعاش والحياة الاجتماعية وأدائها في المأكول والملبس والتزين وكان من أهم العوامل في ذلك وفود زرياب غلام إسحق الموصلى في أول عهد عبد الرحمن الأوسط الذي احتفل به احتفالاً عظيماً وقد علم الأندلسيين الأكل على الموائد بالملاعق والسكاكين بدلاً من الأصابع مع تفضيل آنية الزجاج، وأضاف إلى أطعمتهم ألواناً جديدة من أطعمة بغداد، وعلم المرأة الأندلسية كيف تزين وما تتخذ من عطور ومن ضروب الثياب وكيف تتفنن في تصفيفات شعرها وكيف تسدله على جبهتها وجوانب وجهها، وعلم الرجال آداباً مختلفة في اتخاذ الثياب وتقصيرها وتضييق الأكمام وإرسال شعرهم وراء آذانهم، وأيضاً كيف يتأنقون في فرشهم وتأثيث بيوتهم.^(١)

(١) انظر في هذا الدور الحضارى لزرياب النفع وما بعدها.
للمقرى (تحقيق د. إحسان عباس) ١٢٧/٣

وأخذت الأندلس تخطو خطوات واسعة في الحضارة المادية، وساعدها على ذلك ثراؤها لوفرة الأنهار فيها والثمار والضُّرع والزرع والبساتين وكثرة المعادن، ولاحظ ذلك كل من زاروها من رحالة المشرق فقالوا إن خيراتها كثيرة وليس بها شحاذ ولا متسول، وهياً هذا الثراء فيها وما كان يجنيه حكامها من الضرائب للتفنن في بناء القصور منذ عهد عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد حتى إذا كنا في عهد عبد الرحمن الناصر وجدناه لا يبني قصرًا أو قصورًا متعددة فحسب، بل يبني مدينة الزهراء بجوار قرطبة على سفح جبل العروس وقد ظل عشرة آلاف عامل ينهضون بينها لمدة خمسة وعشرين عامًا، وكانت الطبقة الدنيا فيها بساتين وحدائق، وفي الطبقة الوسطى دور الموظفين، وفي الطبقة العليا قصره وقاعته الكبيرة المزدانة بأعمدة الرخام وحليها الذهبية وجوهرة كبيرة تتلألأ في وسطها سوى ما كان بالمجلس المعروف بمجلس المؤنس من تماثيل لحيوانات من الذهب الخالص. وكان القصر يمتد طولاً في نحو ثلاثة آلاف ذراع وعرضاً في نحو ألف وخمسمائة، وكان به نحو أربعة آلاف عمود من الرخام. ويتضح ثراء الحكم الأموي وأهله في بناء المسجد الجامع بقرطبة. ولا تزال روعته ماثلة إلى اليوم على الرغم مما اقتطع منه لكاتدرائية وكنيسة، وقد استغرق وصف روعة المعمار فيه نحو عشرين صحيفة في كتاب الفن العربي في إسبانيا وصقلية لفون^(١) شاك. وبني المنصور بن أبي عامر حاجب الخليفة هشام المؤيد بدوره مدينة الزاهرة. ولا يتضح ثراء الحكم الأموي في بناء الجامع الكبير الذي ظل يعنى الحكام الأمويون حتى عهد المنصور بزخرفته والاتساع به ولا في بناء القصور وبناء المدن فحسب، فمن أهم صور الهدايا الفاخرة التي ذكر ابن حيان أن عبد الرحمن الناصر^(٢) كان يرسل بها إلى أمراء المغرب مثل هديته إلى موسى بن أبي العافية سنة ٣٢٢ وما كان بها من قطع البزّ العجيب الصنعة والطرف الأنيقة من ثياب وغير ثياب وطيب وغير طيب. وذكر ابن خلدون في ترجمته للناصر هدية^(٣) وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد وما حمل إليه فيها من الذهب، وقد بلغ خمسمائة ألف مثقال وحمل من التبر مثله، سوى كميات كبيرة من سبائك الفضة والعود الهندي والمسك الذكي والعبير والكافور والتياب الحريرية المرقومة بالذهب والفراء الثمين والملاحف المذهبة للخييل والأبسطة، وأيضاً سوى عشرين جارية بكسوتهن وزينتهن وأربعين وصيفاً، وسوى ما لا يكاد يحصى من السلاح وعتاق الخيل الكريمة.

(١) انظر الكتاب بترجمة الدكتور الطاهر مكى (٣) تاريخ ابن خلدون ١٣٨/٤. وانظر أزهار

(طبع دار المعارف) ص ٢٢. الرياض ٢٦١/٢.

(٢) المقتبس ٢٣٨/٥.

وظل كثير من صور هذا الثراء الواسع ماثلاً في عهد أمراء الطوائف، وهو يتضح في تنافسهم في بناء القصور والتفنن في كل ما يتصل بها من أناقة وتنميق على نحو ما يصور ابن بسام ذلك في وصفه لقصر المكرم للمأمون بن إسماعيل بن ذى النون حين احتفل فيه بإعذار لحفيده يحيى، ونشعر كأننا انتقلنا إلى قصر مسحور من قصور ألف ليلة وليلة لكثرة ما فيه من ضروب الديباج والطنافس والستائر المزركشة وأزر الحيطان المرمرية وما عليها من تماثيل وصور لحوانات وأطياف وأشجار وثمار، سوى بحيرتين في القصر صفتُ عليهما تماثيل أسود من الذهب والمياه تنساب من أفواهها. ونعجب أن ينفق أمير طليطلة - وهو أقرب أمراء الأندلس إلى ملوك قشتالة والنصارى عامة - هذه القناطير المقلوبة من الذهب على قصره المكرم، ولا يكاد يبقى في خزائنه ما لا يشتري به سلاحاً للقاء أعدائه، وما هي إلا سنوات حتى سقطت طليطلة من يد حفيده يحيى في حجر ألفونس السادس ملك قشتالة. ولم يكن المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية يقل عن المأمون في طليطلة إسرافاً في بناء قصوره والإنفاق على حظاياه ومجالس أنسه الكثيرة وكان مشغولاً بزوجه اعتماد الرميكية وفي نفح الطيب أنها رأت يوماً بإشبيلية نساء البادية حولها يبعن اللبن في القرب، وهن رافعات - في الطين - ثيابهن عن سوقهن، فقالت له: أستهي أن أفعل مثلهن أنا وجوارىي فأمر بعنبر ومسك وكافور وماء ورد، وصير كل ذلك طيناً في القصر ومعه قِربٌ وحبال من حرير، وخرجت - هي وجوارىها - يَحْمِضْنَ في ذلك الطين. ويحكى عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة أنه حين تنازل عن أمواله ليوسف بن تاشفين كان بينها سَفَطٌ ذهب فيه عشرة عقود من أنفاس الجواهر، وتنازلت أمه عن خمسة عشر عقداً نَفِيساً. وعلى هذا النحو ظل أمراء الطوائف ينعمون بهذا الترف على حساب الشعب، وحقاً كانت هناك طبقة وسطى من التجار والصناع ممن كانوا يقدمون أدوات الترف والنعيم للطبقة الحاكمة وحواشيها من الوزراء والولاة والقواد وكبار رجال الدولة، غير أنه كان وراءها طبقة من العامة تكدح وتنصب لطائفة استأثرت لنفسها بزينة الحياة.

على أنه ينبغي أن لا نبالغ في صور ما كانت تعيش فيه الطبقة العامة من شظف في الحياة أو يؤس لكثرة ما كان في الأندلس من طبيبات الرزق، وقد ظلت تنعم بما فيها من ثراء لعهدى المرابطين الموحديين ونرى آثاره في بناء السلطان يعقوب الموحدى لجامع إشبيلية ومئذنته «الحخير الدا» التي لا تزال قائمة إلى اليوم، أما الجامع فأحاله المسيحيون إلى كنيسة، وما كان أحراهم أن يبقوه متحفاً - على مر الزمن - يعرض مهارة الفنان الأندلسي في المعمار والزخرفة. وحرى بنا أن نذكر أنه كان بالأندلس غابات كثيرة هيأت

لصناعة الأساطيل وازدهار صناعة الأثاث، واشتهرت طرطوشة بصنوبر أحمر صافي البشرة، ومن عيدانه أخذ خشب المسجد الجامع بقرطبة. وكانت المعادن كثيرة، ومن أهمها معدن الزئبق في شمالي قرطبة، ويقول الإدريسي في القرن السادس الهجري إنه كان يعمل فيه ما يزيد على ألف عامل، وازدهرت صناعات الحلى والأواني والحِقاك والطرف المعدنية والبرونزية والفضية والملابس والثياب الحريرية، ويقول الإدريسي إنه رأى في المرية ثمانمائة دار طراز للحرير تصنع فيها الحلل والثياب والستائر والبسط. ويقول ابن خلدون في مقدمته عن الأندلس وصناعاتها وقد نزلها في أواخر القرن الثامن الهجري: «إنا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها كالمباني والطبخ وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار والرقص وتنضيد الفرش والرياش وحسن الترتيب والأوضاع في بناء القصور وصوغ الآنية من المعادن والخزف وجميع المواعين وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده فنجدهم أقوم عليها وأبصر بها، ونجد صنائعها مستحكمة لديهم، وهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الأمصار لما قدمناه من رسوخ الحضارة أيام الدولة الأموية ودول الطوائف»^(١). ومن أكبر الأدلة على استمرار ازدهار الصناعات ومظاهر الحضارة المادية في الأندلس قصر الحمراء الذي شاده بغرناطة أمرؤها في الحقب العربية الأخيرة بها، وليس قصرًا فحسب بل معرضًا خلابًا لما وصلت إليه الحضارة الأندلسية من ازدهار، وبه يحيط سور يعلوه شرف للحراسة، وتلقاك بداخله جنة العريف، وهي حديقة كأنها اقتطعت من الفردوس بنافوراتها ومياهها المتدفقة وأشجار البرتقال والريحان بها والأزهار الأرجة، ومن ورائها القصر الفخم وقد فرشت أرضه بالرخام وازدانت حيطان قاعاته وردهاته وغرفته بالآيات القرآنية والأشعار وآلاف الزخارف، وتلقاك أسود في قاعة حاملة حوضًا من الماء ينسكب من أفواهها، وقد استغرق وصف هذا القصر وجنته في كتاب «الفن العربي في إسبانيا وصقلية» لفون شاك أكثر من خمسين صفحة، وإنه ليقول وقد أخذت روعته بلبه: «سعيد من يستطيع زيارة الحمراء إذ سوف تستيقظ في روحه الأحلام المكتوبة وتحيا الآمال الضائعة»^(٢).

(١) المقدمة (تحقيق د. علي عبد الواحد وافي) (٢) انظر الفن العربي في إسبانيا وصقلية لفون شاك ص ٩٣٨ وما بعدها.

الغناء

وكان الغناء يشيع في الأندلس منذ وفود زرياب غلام إسحق الموصلى على الأمير عبد الرحمن الأوسط واحتفاله به احتفالاً عظيماً، إذ جعل له راتباً مائتي دينار في الشهر وأقطعه من الدور والضياع ما يقدر بأربعين ألف دينار غير صلات سنية. وأقام زرياب في قرطبة معهداً يتدرب فيه الفتيان والفتيات على الغناء، واشتهر بأنه أضاف إلى أوتار العود وترّاً خامساً اخترع له مضرباً من قوادم النسر^(١)، وجعل للغناء تقاليد انفردت بها الأندلس فكان يبدأ بالنشيد ويخرج منه إلى البسيط ويختم بالحركات والأهازيج^(٢)، وينقل التيفاشى عن ابن سعيد أنه لم يكن بالأندلس قبله سوى طريقة حُداة العرب وترانيم الكنائس دون قانون^(٣) فيها أى دون رقمٍ (نوت) موسيقية. وزرياب بذلك يفتح حركة الغناء والموسيقى في الأندلس. وخرّج زرياب كثيرين من الشباب والجوارى منهن منفعة أهداها إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط ومنهن بنانة وقلم وعلم وشفاء. وأخذ الغناء في الأندلس يزدهر بعده ومن أتقنوه عباس بن فرّناس المتوفى سنة ٢٧٤ واتسع التعلق به، حتى أصبح الشغل الشاغل لكثير من المدن، ويحكى التجيبى شارح أشعار كتاب المختار من شعر بشار للخالدين في مقدمة شرحه أنه بات ليلة في سنة ٤٠٦ بمالقة ساهراً لما كان يخفق حوله من أوتار العيدان والطناير والمعازف من كل ناحية. وكل بلاد الأندلس كانت مثل مالقة عزفاً وغناء، واتسعت الموجة زمن أمراء الطوائف وخاصة في إشبيلية وطليطلة. ومن اشتهر بعد زمنهم بجودة التلحين أبو الصلت أمية بن عبد العزيز، وهو الذى أخذ أهل إفريقية الألحان الأندلسية عنه، وكان يعاصره الفيلسوف ابن باجة وكان إمام الأندلس الأعظم في الموسيقى والألحان، وخلفه عليها تلميذه أبو عامر بن الحمارة وكان يصنع عود الغناء بيده وينظم الشعر ويلحنه عليه ويعنى^(٤) به، شأن المغنين الأوربيين المعاصرين الذين ينظمون الشعر ويلحنونه ويعنونه. ويبدو أنه كان يقترن الرقص بالغناء منذ زرياب، وقد رقى بدوره فنوناً من الرقى حتى لنجد ابن كسرى المالقى المتوفى سنة ٦٠٣ لتهجرة يصف حركات راقصة تسمى نزهة على هذا النمط^(٥):

- (١) النفع ١٢٦/٣. (٤) المغرب ١٢٠/٢.
- (٢) النفع ١٢٨/٣. (٥) تحفة القادم نشر الفريد البستاني بمجلة
- (٣) انظر كتاب ورفات عن الحضارة العربية المشرق ببيروت العدد ٤٠، ٤١ سنة ١٩٤٧م رقم
- بإفريقية التونسية (طبع تونس) ١٧٩/٢. ٥٧.

إذا رقصت أبصرت كلَّ بديعةٍ تُرى ألفاً حيناً، وحيناً هي النونُ

فهي تتحرك في رقصها حركات شتى، تارة تُرى معتدلة، وتارة تتثنى وتبالغ في الثنى حتى لتصبح مثل القوس أو مثل النون. ويرسم لنا على بن يوسف بن خروف القرطبي نفس الصورة فيقول في راقص ولعلها راقصة^(١):

ومنوع الحركات يلعب بالنهى	ليس المحاسن عند خلع لبائيه
متأوداً كالغصن وسط رياضه	متلاعباً كالظبي عند كِناسه ^(٢)
بالعقل يلعب مُقبلاً أو مُدبراً	كالذَّهر يلعبُ كيف شاء بناسه
ويضمُّ للقدمين منه رأسه	كالسيف ضمَّ ذبابه لرأسه ^(٣)

واشتهر في القرن السابع أبو الحسن المرسى وكل تلحين بالأندلس والمغرب في شعر متأخر فهو من صنعه. وقد أخذ ملوك قشتالة منذ القرن الخامس الهجري يجذبون إليهم بعض المغنين والمغنيات الأندلسيات ويقيمون لهم الحفلات وكان لذلك أثره البعيد في نشأة الموسيقى عند الاسبان، إذ لم يكن يعرفون قبل الغناء العربي وما صحبه من موسيقى سوى ترانيم الكنائس كما يقول ابن سعيد، فعرفوا آلات الموسيقى العربية الكثيرة ورقمها الموسيقية، تدل على ذلك أكبر الدلالة أساء تلك الآلات في اللغة الإسبانية، فقد انتقلت إليها بأنغامها وألحانها العربية وهو دين كبير للموسيقى الأندلسية العربية على الموسيقى الأوربية فقد أخرجتها من عالم الترانيم الكنسية إلى عالم الموسيقى المؤلفة في رُقْمٍ (نوت) موسيقية بتقديرات لحنية زمنية دقيقة.

المرأة

ولم نتحدث حتى الآن عن المرأة في المجتمع الأندلسي، وكانت تحظى فيه بشيء من الحرية قلما كانت تحظى به أختها في المشرق، يدل على ذلك من بعض الوجوه أن نجدها تركب مع الأمير في موكبه إذ نرى ابن حيان يروي أن الأمير عبد الرحمن الأوسط قال لحاجبه عيسى بن شهيد يوماً وكان قد طال عليه المرض والمكث في قصره دون خروج:

(١) المغرب ١/١٣٧.

(٢) ذباب السيف: طرفه القاطع - رأس السيف:

(٣) متأوداً: متنيا - كناس الظبي: مأواه في

مقبضه.

الشجر.

«إن بعض كرائمنا سألنا تجديد العهد لديهن بالركوب معهن للنزهة على مقتضى العادة، فإخرج من فورك فانظر في إقامة ما يحتاج إليه للنزهة على مقتضى العادة واعجل بذلك فإننا متحركون صبيحة^(١) غد» ويبدو أن الأميرات كن يبرزن للشعب سافرات يدل على ذلك ما ذكره ابن حزم في رسالته: «نقط العروس» من أن رسيس كانت سيدة مهيبة اتصلت بعبد الرحمن الناصر ونالت عنده مكانة رفيعة مما جعله يركبها في موكب له ذات يوم على بغل خلفه سافرة بقلنسوة وشقَّ بها الربض الغربي كله بقرطبة إلى مدينته: الزهراء^(٢). ومما يدل على ما كان للمرأة الأندلسية من منزلة أن نجد بينهن كاتبات أو كما نقول الآن سكرتيرات للأمراء والحفباء مثل مُرَّنة كاتبة عبد الرحمن الناصر كما يقول صاحب^(٣) انصبة، وأيضاً كاتبة كنهان^(٤) كما يقول صاحب الذيل والتكملة، ومثل ليني^(٥) كاتبة ابنه الحكم المستنصر كما في الصلة. واشتهرت في الأندلس غير شاعرة حتى ليترجم المقرئ لعشرين منهن، وسنلم بذلك في الفصل التالي. ويبدو أن كثيرات من النساء وخاصة في البيت الأموي كن يتقن أرقى الآداب الاجتماعية مع حيازتهن للثقافة ونظمهن للشعر مما أعدَّ لظهور ولادة بنت الخليفة المستكفي واتخاذها في قصرها ندوة أدبية كان يحضرها ابن زيدون وغيره من الشعراء والأدباء. وظل ذلك في الأندلس، فكانت هناك سيدات من البيوت الرفيعة تحذو حذو ولادة في اتخاذ ندوة أدبية لها، حتى في عهد المرابطين الذين يقال عنهم إنهم كانوا محافظين، إذ نجد سيدة شريفة من بيتهم هي السيدة حواء زوجة سير بن أبي بكر - الذي مهَّد بحسن قيادته ليوسف بن تاشفين حكم الأندلس وظل حاكماً على إشبيلية اثنين وعشرين عاماً - تتخذ لنفسها ندوة مماثلة لندوة ولادة، وسنعرض لها في ترجمتنا للأعمى التطيلي ومدحه لها بقصيدة بديعة. وعلى شاكلتها وشاكلة ولادة تلقانا حفصة الركونية وندوتها الأدبية في عصر الموحدون وسنترجم لها مع أبي جعفر بن سعيد في حديثنا عن الغزل.

(٣) الصلة لابن بشكوال رقم ٦٥٢.
 (٤) الذيل والتكملة للمراكشي (طبع المغرب) ٤٩١/٢/٨.
 (٥) الصلة رقم ٦٥٣ وبغية الملتبس رقم ١٥٨٩ وكانت بارعة الحظ نحوية عروضية شاعرة.

(١) انظر المقتبس (بصفيق د. مكي - ضع بيروت) ص ٢١.
 (٢) راجع نشرتنا لتلك الرسالة في الجزء الثاني من المجلد الثالث عشر من مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ص ٧٣ - ٧٤.

التشيع - الزهد والتصوف

(أ) التشيع^(١)

من الخطأ أن نظن أن ثورة أحد أحفاد من ناصروا عليا في صفين كانت ثورة شيعة كما حدث في عهد عبد الرحمن الداخل وبالمثل ثورة حفيد لعبار بن ياسر عليه، ويقال إن عمر بن حفصون اتصل - في أثناء ثورته بالفاطميين - وكانوا لا يزالون في القيروان ولم يكن اتصال ولاء إنما كان اتصالاً سياسياً كيدياً للأمير عبد الله بن محمد. ودعا تائر أموى لنفسه سنة ٢٨٨ للهجرة هو أحمد بن معاوية وتلقب بالمهدى، فظن خطأ - لهذا اللقب - أن لثورته علاقة بالتشيع وكل ما هناك أنه استعار هذا اللقب من دعاة الشيعة. ونجد ابن عبدربه المتوفى سنة ٣٢٨ يتحدث في كتابه «العقد الفريد» عن الشيعة وفرقهم وليس معنى ذلك أنه كان شيعياً، فقد كان متشيعاً للأمويين متعصباً لهم.

وحاول آسين بلاسيوس أن يرد بعض آراء ابن مسرة المتوفى سنة ٣١٩ إلى آراء الإسماعيلية من الشيعة لمقامه فترة في القيروان عاصمة الفاطميين قبل انتقالهم إلى مصر. غير أنها ترد - كما سنرى في غير هذا الموضع - إلى الاعتزال والتصوف والفلسفة، فلا علاقة بينه وبين التشيع، وبالمثل لا علاقة بين منذر بن سعيد خطيب عبد الرحمن الناصر وبينه. وحقا أرسل الفاطميون بعض جواسيسهم للتعرف على الأندلس والدعوة لهم مثل ابن حوقل، غير أن ذلك لم يأت بطائل، إذا استثنينا تشيع ابن هانئ الشاعر الأندلسي وإيمانه بالعقيدة الإسماعيلية، وربما كان أبوه من دعاتهم السريين في الأندلس.

ووجدت في الأندلس زمن الفتنة الأموية فرصة للشيعة كي ينشطوا للدعوة إلى أنفسهم هناك حين استولى على بن حمود - من أسرة الأدارسة في المغرب - على مقاليد الخلافة الأموية سنة ٤٠٧ غير أن غلبانه قتلوه - كما أسلفنا - في السنة التالية، وولى

(١) الفريد لابن عبدربه والمغرب في مواضع مختلفة والتشيع في الأندلس للدكتور محمود مكى ومصادره.

(١) انظر في التشيع بالأندلس صورة الأرض لابن حوقل وأحسن التقاسيم للمقدسى والعقد

بعده أخوه القاسم، ونازعه ابن أخيه المعتلى - كما مر بنا - ولم يلبث أن لحق بمالقة، وبها قتل سنة ٤٢٧. ولم يأخذ هؤلاء الحموديون الفرصة كي ينشروا في الأندلس دعوة شيعية، وهم أنفسهم لم ينظموا هذه الدعوة هناك. وتنشأ صلة في عهد أمراء الطوائف بين أمير دانية على بن مجاهد والفاطميين غير أنها لا تتعدى تبادل بعض الرسائل. ويربط بعض الباحثين بين ما حظى به اليهود - لعهد الطوائف - من مكانة في غرناطة وبين ما كان في أمرائها بنى زيرى من نزعة شيعية، وكأنما للتشيع صلة باليهودية، وهو ربط بعيد، والصحيح أن اليهود حظوا بهذه المكانة عند بنى زيرى لقدرتهم الاقتصادية مما جعل بنى زيرى يولون أحدهم - وهو ابن النغريلة - الوزارة

ونستطيع أن نزعم أن الأندلس كانت محصنة ضد التشيع ودعاته، حتى ليقول المقدسى في أواخر القرن الرابع الهجرى إن الأندلسيين إذا عثروا على متشيع ربما قتلوه. وحتى بعد انتهاء الدولة الأموية نجد كبار المؤرخين في الأندلس مثل ابن حيان وكبار المفكرين هناك مثل ابن حزم يتعصبون للأمويين ضد الشيعة تعصبا شديدا. وكل ما يمكن أن يكون للتشيع في الأندلس إنما هو بعض الأصداء في مدائح الشعراء للحموديين في قرطبة ومالقة لمدة ربع قرن، وهى أصداء ضعيفة جدا إذ قلما صدر الشعراء في شعرهم عن تشيع حقيقى لآل البيت. وسرى في حديثنا عن الرثاء أن الأندلسيين أخذوا منذ عصر المرابطين يستوحون مأساة الحسين في نظم بعض مرثى له، بل لقد أقاموا له أحيانا ماتم يندبونته فيها، وكأنما كانوا يندبون مأساتهم ومأساة رجالهم في الأندلس. ونخلص من كل ما قدمنا إلى أنه لم تظهر في الأندلس موجة حادة للتشيع، وكل ما حدث أن أفرادا قد يتشيعون، وهو تشيع لا يعدو - غالبا - حب آل البيت.

(ب) الزهد^(١) والتصوف

أخذت تنمو في الأندلس نزعة مبكرة إلى الزهد في متاع الحياة الدنيا والإقبال على العبادة، وكان مما يزيكها في نفوس الأندلسيين الوعاظ في المساجد الذين كانوا يعظونهم

١) ابن حيان والإحاطة في أخبار غرناطة والنفح وأزهار الرياض (انظر الفهارس) والمرقبة العليا للنباهى والطبقات الكبرى للشعرافى وتاريخ الفكر الأندلسى لبالنشيا

(١) انظر في الزهد والتصوف بالأندلس وأعلامها المذكورين هنا الصلة لابن بشكوال والتكملة لابن الأبار والمغرب لابن سعيد والفصل في الملل والنحل لابن حزم والذيل والتكملة للمراكشى والمقتبس

دائماً ويذكرونهم بالله واليوم والآخر وأنهم معروضون على ربهم يوم القيامة فإما إلى الجنة والنعيم، وإما إلى النار والجحيم. وزكاها أيضاً أن الحكام الأمويين كانوا يلتزمون الصلاة في المسجد الجامع وكانوا يأخذون أبناءهم ونساءهم بآداب الإسلام والقيام بفرائضه وواجباته، ومنذ عبد الرحمن الأوسط كانت تعنى زوجاتهم ببناء المساجد على نحو ما كانوا يعنون هم أنفسهم ولكن يقفن بعض أموالهن للجهاد في سبيل الله، واشتهرت طروب زوجة عبد الرحمن الأوسط ببنائها مسجداً في الرض الغربي من قرطبة، واشتهرت ابنته البهاء بزهدها ونسكها وكتابتها لمصاحف وقفتها في مسجد لها بين مساجد الرض الغربي.

ومن أوائل من يلقانا من زهاد الأندلس وعُباؤها أيوب البلوطي، ويروى أن السماء سحّت بمطرها لأول عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) وفرح الناس إلى قاضيه مسرور بن محمد كى يصلى بهم صلاة الاستسقاء لما يعرفون من صلاحه، فلباهم حتى إذا وقف ليخطب خطبة الاستسقاء نادى: يا أيوب البلوطي! عزمت عليك حيث كنت لتقومن، فلم يقم إلا بعد أن أقسم عليه في الثالثة، وقال حين قام: يا هذا أشهرتني أما كنت أدعو حيث أنا؟ ثم رفع القاضى رأسه فقال: اللهم إنا نستشفع إليك بوليك هذا، وألح بالدعاء، وكثر الضجيج والبكاء، فلم ينصرفوا إلا وأحذيتهم في أيديهم من كثرة المطر. وطُلب أيوب بعد ذلك فلم يوقف له على أثر. ويدل هذا الخبر على أنه كان لأهل الأندلس اعتقاد حسن في النسك الزهاد. ومن كان يفرط في زهده ونسكه كانوا يظنون أنه من أولياء الله وأنه مجاب الدعوة. وكان يعاصر أيوب إمام في المذهب المالكي هو عيسى بن دينار المتوفى سنة ٢١٢ وكان في الذروة من العبادة والزهد، ويقال إنه صلى أربعين سنة الصبح بصلاة العتمة أو العشاء. واشتهر بالزهد من قضاة عبد الرحمن الأوسط معاذ بن عثمان المتوفى سنة ٢٣٤ وقيل إنه كان مجاب الدعوة. ومن الزهاد أيام عبد الرحمن الناصر أبو وهب عبد الرحمن العباسي المتوفى سنة ٣٤٤ وسنعرض له بين شعراء الزهد. ويلقانا في زمن الفتنة الزاهد عبد الرحمن بن مروان القنازعي المتوفى سنة ٤١٣ نسب إلى ما كان يكتفى به لسد رمقه من صنع القنازع التي كان يتخذها الأندلسيون لغطاء رءوسهم مما يشبه الفلنسة، وكان صوام النهار قوام الليل راضياً بالقليل من كسبه، ولم ينحط يوماً إلى مسألة أحد. ومن الزهاد في عصر أمراء الطوائف الفقيه المحدث ابن الطلاع، واشتهر بأنه لقي المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، فوعظه ووبّخه على حياته الماجنة اللاهية. ويؤلف ابن بشكوال المتوفى سنة ٥٧٨ كتاباً في زهاد الأندلس وأمتها، وتظل نزعة الزهد حية مطردة فيها حتى خروج الإسلام والمسلمين

منها في نهاية القرن التاسع الهجري .

وأخذت موجة من التصوف ترافق هذا الزهد منذ أيام عبد الرحمن الناصر، وكان أول من بعثها ودفعها دفعا قويا في الأندلس محمد بن عبد الله بن مسرة المتوفى سنة ٣١٩ للهجرة، وكان قد حج وطوّف ببلدان المغرب ومصر والشام والحجاز ولا بد أن سمع بمحنة الحلاج وصلبه سنة ٣٠٩ ببغداد وعاد إلى موطنه، واعتزل مع تلاميذه في منزله بجبل قرطبة، وأخذ يلقيهم تعاليمه، وكانت مزيجا من آراء الصوفية والمعتزلة ومر بنا استنكار عبد الرحمن الناصر لعقيدته، وذكر ابن حيان في الجزء الخاص بالناصر إرساله سنة ٣٤٠ إلى البلدان المختلفة في الأندلس منشورا يندد فيه بعقيدة ابن مسرة ويتوعد أتباعه، مما يدل على أنها كانت قد أخذت تشيع وتتألف حولها فرقة. وتمادى الطلب لأفرادها بقيّة عهد الناصر وفي عهد ابنه الحكم المستنصر، مما جعلهم يضطرون للاختفاء حتى إذا أظلم عهد هشام المؤيد عادوا إلى الظهور والنشاط في الدعوة لعقيدتهم مما اضطر القاضي محمد ابن يقي بن زرب المتوفى سنة ٣٨١ للهجرة إلى الكشف عنهم واستتابتهم، وتابت على يديه منهم جماعة. غير أن هذه العقيدة الصوفية استمرت، ويذكر ابن حزم في كتابه «الفصل» من معتنقها في النصف الأول من القرن الخامس الهجري إسماعيل بن عبدالله الرُّعَيْنِي، ويقول إنه أدخل على عقيدة ابن مسرة بعض التعديل، من ذلك أنه ذهب إلى أن العالم لا يفنى وأنه مستمر إلى ما لا نهاية. ولم تضمحل هذه العقيدة الصوفية في الأندلس لعهد أمراء الطوائف بل ظل لها أتباع في قرطبة وإشبيلية والمرية وغيرها من المدن الأندلسية.

وأخذ التصوف ينشط في عهد دولة المرابطين، ومن أهم المتصوفة لعهدا أبو العباس ابن العريف المتوفى بمراكش سنة ٥٣٦ وهو من أهل المرية وله في التصوف كتاب محاسن المجالس نشره آسين بلاسيوس مع ترجمة فرنسية، وكانت تقوم طريقته على الزهد في منازل الصوفية والعطايا والمواهب الإلهية والكرامات وما يتصل بها من المنن التي بين الله بها على النفس الإنسانية. ويقول إن طريقته هي طريقة الخواص التي تقف عند الفناء في محبة الذات الإلهية، وكأنه لا يقول بوحدة الوجود إنما يقول بالفناء في المحبة الإلهية، وهو بذلك يعد من أصحاب التصوف السني، وكأنه يبتعد عن مراتب التصوف الفلسفي القائل بوحدة الوجود خطوة أو خطوات. ومن معاصريه في الأندلس ابن برجان الإشبيلي عبد السلام بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٥٣٦، وأيضا ابن قسّي أبو القاسم أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٥٤٦ والذي قاد ثورة بغرب الأندلس ضد المرابطين حين ساءت

أحوالهم وأوشكت على نهايتها، وكان يتزعم في ثورته طائفة كبيرة من المريدين أى المتصوفة. ويلقانا في عصر الموحدين غير متصوف أندلسى ينزع بقوة نحو التصوف الفلسفى مثل أبى عبدالله الشوذى وتلميذه ابن دهاق المالمقى المتوفى سنة ٦١١ للهجرة وينشأ فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى محبى الدين بن عربى (٥٦٠ - ٦٣٨ هـ) بإشبيلية، ويأخذ فيها تصوفه الفلسفى المعروف عن شيوخ متعددين يذكرهم من ترجموا له كما يأخذه عن عجوز تسمى نونة فاطمة بنت ابن المثنى القرطبية لزمها سنتين خادما ومريدا. وأشهر من جاءوا بعده فى التصوف الفلسفى أبو الحسن الششتري المتوفى سنة ٦٦٨ وابن سبعين المتوفى سنة ٦٦٩. ويلقانا فى القرن الثامن ابن عباد الرندى المتوفى سنة ٧٣٣ وقد طاف ببلدان المغرب، وكأنا وجد فى العقيدة الشاذلية السنية مأربه فانضم إلى أتباعها، وعنى بشرح كتاب الحكم لابن عطاء الله السكندرى ووصف فى شرحه رياضاته ومجاهداته النفسية.